كتاب في جريدة
عدد ٦٦ الأربعاء ١١ شباط/فبراير ٢٠٠٤ م

الضوء الأزرق

حسين البرغوثي
رسوم حسن الحوراني



المؤسسة الراعية



الشريك الثقافي



بيان صحفي

توقيع إتفاقية تعاون بين اليونسكو ومؤسسة محمد بن عيسى الجابر الخيرية

وقّع في يوم الجمعة ١٩ سبتمبر ٢٠٠٣ م في مقر اليونسكو بباريس المدير العام لليونسكو المستر كويشيرو ماتسوورا وسعادة الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مجلس إدارة مجموعة إم بي آي العالمية MBI INTERNATIONAL ومؤسس إم بي آي MBI FOUNDATION ومعهد لندن للشرق الأوسط LONDON MIDDLE EAST INSTITUTE، إتفاقية تعاون مشتركة بين اليونسكو و MBI FOUNDATION وذلك في مجالات التعليم والثقافة.

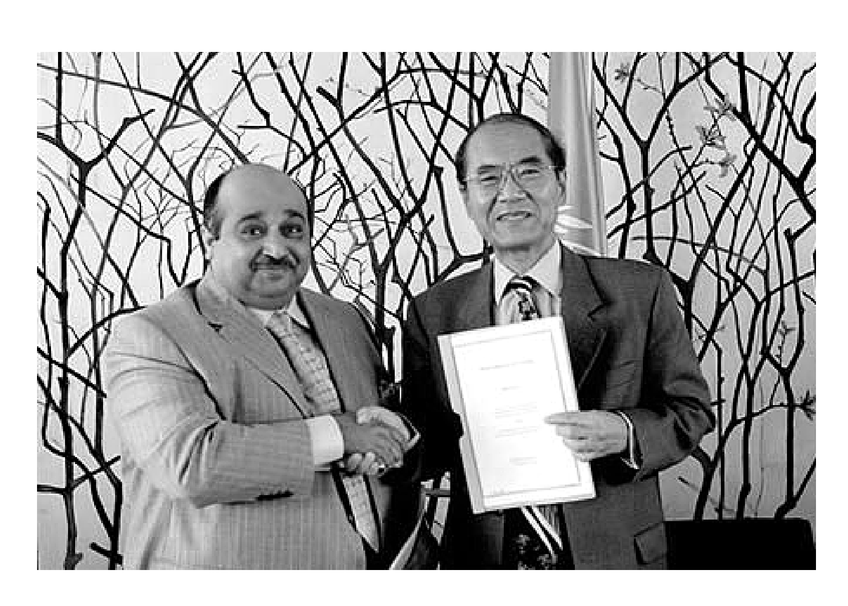
تضع الإتفاقية أولى إهتماتها على تطوير وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط وما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية، بجانب مشروع إدخال الحرف العربي في الإنترنت ومشروع "كتاب في جريدة" وقد بدأ تنفيذه بالفعل.

حضر حفل التوقيع مساعدو المدير العام ومدراء الإدارات باليونسكو وأصحاب السعادة سفراء الدول العربية المعتمدون لدى اليونسكو، منهم : موسى بن جعفر حسن سفير سلطنة عمان، فدا العادل سفير المملكة العربية السعودية، و فواز غرايبة عضو المجلس التنفيذي عن الأردن، أحمد عبد الرزاق ممثل فلسطين و عبد الوهاب بو هديبا رئيس الأكاديمية العلمية وممثل تونس في المجلس التنفيذي، ومحمد النجار سفير المغرب ومندوبة الأليسكو، لدى اليونسكو، وسفير الكويت.

عقب توقيع الإتفاقية ألقى السيد المدير العام لليونسكو كلمة حيّا فيها جهود محمد الجابر المقدّرة مبدياً سروره وترحيبه بالإتفاق الذي وقّع كما أثنى على المبادرة الرائدة، مما يؤكد الثقة في منظمة اليونسكو ويدعم برامجها لإنجاز المهام الملقاة على عاتقها.
أعطيت الفرصة للسادة السفراء الذين تباروا في الإشادة بتلك المبادرة والتي أجمع المتحدثون على أنها أول مشروع عالمي يأخذ عربي ذمام المبادرة فيه مما سيعود نفعه على المنطقة والعالم بأسره.

وكان محمد الجابر قد إقترح على اليونسكو – في كلمته التي ألقاها في المناسبة – إنشاء "مجلس حكماء" من خبراء التربية والتعليم العرب يضم المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لوضع إستراتيجية للتعليم تهدف للمساعدة في بناء مجتمع مدني متطور في المنطقة. وإختتم الجابر كلمته "كان إيماني دائماً أن الأمن والإستقرار في منطقة الشرق الأوسط مرتبطان إرتباطاً وثيقاً بالثقافة والتعليم اللذين يعتبران شرطاً أساسياً لقيام ديمقراطية فاعلة ..ولعل دور اليونسكو في السلام والأمن والإستقرارالذي يقوم على إحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية ينسجم تماماً مع توجهاتي وما أسعى إليه وأتوق لتحقيقه".

هذا وقد ظلّ محمد الجابر يقدم عن طريق مؤسسته هذه ولسنوات عديدة منحاً دراسية للطلاب العرب لنيل درجات عليا في أعرق الجامعات العالمية، كما شمل إهتمامه بالمرأة تقديم الفرص الكافية لها في مجال الدراسات العليا فكان تبرعه الأخير بمبلغ مليون جنيه إسترليني لكلية دار الحكمة للبنات في جدة، أردفه بمنح دراسية للمتفوقات من خريجات هذا العام الدراسي حيث حصلت سبع منهن على منح هذا العام وهنّ الآن بلندن لمتابعة الدراسات العليا.



حسين البرغوثي

١٩٥٤-٢٠٠٢



نبذة مختصرة ولد حسين البرغوثي في قرية "كوبر" العام ١٩٥٤ تلقى تعليمه الإبتدائي والإعدادي فيها قبل أن ينتقل إلى رام الله حيث أنهى دراسته الثانوية وسافر في بعثة إلى هنغاريا لدراسة الإقتصاد ولكنه لم يكمل دراسته فيها وعاد إلى فلسطين ليلتحق بجامعة بيرزيت التي تخرج منها حائزاً على شهادة في مجال الأدب الإنجليزي حصل بعدها على بعثة أتاحت له الدراسة في أميركا فأكمل دراسته العليا ونال درجة الماجستير والدكتوراة في الأدب المقارن من جامعة واشنطن، سياتل.

عُرف حسين البرغوثي بثقافته الشمولية وقدرته على الحوار والجدل واجادته لعدة لغات، عمل لسنوات في مجال التدريس في جامعتي بيرزيت والقدس وله تأثير عميق على أجيال من الكتّاب الشباب في فلسطين.

تنوّعت أعماله بين الشعر والنقد والرواية والمسرح والسينما والفلسفة وفي السنوات التي واجه فيها السرطان أنجز كتابه الهام في المسيرة "الضوء الأزرق".

توفي حسين البرغوثي في مطلع مايو/أيار ٢٠٠٢ في رام الله بعد صراع عنيد مع السرطان.

من أعماله

في الشعر: ليلى وتوبة، توجد ألفاظ أوحش من هذه، مرايا سائلة

في النقد: الصراعات النفسية في الادب، أزمة الشعر المحلي، سقوط الجدار السابع، حجر الورد، الفراغ الذي رأى التفاصيل

في الرواية: الضفة الثالثة لنهر الاردن

في السيرة: الضوء الأزرق، سأكون بين اللوز

اضافة الى اسهامات متنوعة في المسرح والسينما والنصوص الغنائية التي قدمتها أكثر من فرقة فلسطينية مثل صابرين.

رحيل زارع الاشارات كان يميل في نومته على الجانب الذي خربه المرض تاركاً ما تبقى من الرئة اليمنى حراً في احتمال عبء الهواء والتنفس والنظر في عيوننا، وغير بعيد عن السرير

كانت وجبة العشاء التي لم يتناولها، قطعة جبن، حلاوة طحينية، حمص، خبز ونصف حبة "كريب فروت"، كان هناك عدد من تلاميذه يتناوبون على قراءة نصوص من كتابه "حجر الورد".. محمولين على رغبة أنه يستطيع أن يسمعهم، وكنا نعلم أننا نفارقه تماماً وأنه ينسحب من بيننا دون رأفة، فكرت أنه لم يتعشَّ.

كان ذلك مهماً بالنسبة لي وكأنني وجدت تلك الحافة التي عليّ أن أتمسك بها في الفراغ الذي كان يعبر من كل مكان ليتراكم فوقنا وحولنا وعلى أطراف السرير والأغطية المعلقة على الجدار تلك التي تحمل اشارات الحياة والتي كانت تواصل تقدمها في هواء الغرفة والاضاءة وتواصل دفعنا دون توقف نحو أقاصينا ومخاوفنا.

كلما كنت أجلس على المقعد الأبيض البلاستيكي المواجه له كنت أعرف أنها تتقدم وان المساحات المتبقية لنا تضيق وانها تتحكم الآن في كل شيء، ومثل تعويذة شريرة تحكم قبضتها على المكان. لذلك، ربما، بدت فكرة انه "لم يتعشَّ" بحد ضرورية وملاذاً لحمايته من الموت وحماية المكان من غيابه.

في الرابعة صباحاً بدأ جنود الاحتلال يتقدمون نحو وسط المدينة، كان صوت الرصاص يصل الينا في الغرفة من الشوارع المحيطة بالمشفى، وكانت أصوات الركض وإعداد البنادق في أيدي المقاومين تصل الينا ايضاً من حدائق البيوت ونوافذها..

في الرابعة والربع تماماً من فجر الأول من أيار/مايو عام ٢٠٠٢ قبل أربعة أيام من عيد ميلاده الثامن والأربعين أغمض أحدنا عينيّ حسين البرغوثي وكان ذلك مؤلماً وعميقاً وما يشبه الموت.

قبل يومين من رحيله جلسنا طويلاً وكنت أحاذر أن أرهقه بالحديث وبدا على غير عادته صموتاً في الأيام الأخيرة، كان الكلام ينهك رئته ويسرق الاوكسجين الذي تحتاجه.. فجأة بدأ يتحدث، وبدا أنه يسترد صوته وحيويته وقدرته المذهلة على مدِّ تلك الجسور الذكية بين المعرفة والابداع.. تلك، بالضبط، كانت نقطة حسين القوية، وهناك كان يتبدى امتيازه.. عشرات المرات الصغيرة التي يبدأ بنسجها وتمتين خيوطها باندفاع لا يخلو من بهجة.. وتجسيد تلك الجزر المعزولة باليابسة.

حسين الذي واصل جدله وقدرته العميقة على وضع الاشارات الصحيحة في فضاء الآخرين وعتبات كتبهم، حسين الذي لم يخن ثقافته ومعرفته التي حوّلها ببساطة وقوة الى سلوك يومي، هذا السلوك الذي جعله خصماً عنيداً لفساد المؤسسة الثقافية وجحودها واصل جدله معها وواصل وضع اشاراته العنيدة على ممراتها التي علاها الغبار والكسل والانسحاب.. غبار الغياب الذي قاومه طويلاً وهو الدؤوب العنيد.

في الخامسة صباحاً كان علينا أن نحمله الى الثلاجة في المبنى المقابل بعد أن أصبح أمراً مختلفاً وجديداً، كان واضحاً أننا ننشئ علاقة من نوع آخر مع هذا الجسد الملفوف بالشراشف البيضاء. وكان عليّ أن أرمم ثغرات كثيرة في ذاكرتي، غيابات لم يعد بالامكان تفاديها، وبينما كنت أدفع العربة معهم في الشارع الخاوي الا من قرقعة عجلاتها وطلقات القناصة كنت أفكر أننا بضجتنا تلك نوقظ رام الله في هذه الصبيحة الضبابية الباردة.

غسان زقطان

حسن الحوراني ١٩٧٥-٢٠٠٣

ولد الفنان حسن الحوراني في مدينة الخليل، فلسطين. تخرج من أكاديمية بغداد للفنون الجميلة في العراق عام ١٩٩٧. عاد بعدها ليعمل في أحد معاهد مدينة رام الله مدّرساً للفنون لمدة عام ثم متفرغاً للفن. حصل على جائزة الفنان الشاب للعام ٢٠٠٠، سافر بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عمل في مدينة نيويورك على إنتاج كتابه الفني الموجه بالاساس للفتيان (حسن في كل مكان) والذي هو عبارة عن رسم ونص يصور رحلة بحث فلسفية في الطبيعة والحياة تمثل سيرته الذاتية، وقد حصل على منحة تفرغ لانتاج هذا الكتاب من مؤسسة عبد المحسن القطان. عاد الى فلسطين يوم ٢٥ /٢٠٠٣/٧ لاتمام الكتاب وطباعته. توفي في حادث غرق مأساوي مع ابن شقيقته الفنان سامر ابو عجمية في بحر يافا يوم ٢٠٠٣/٨/٦.

أنتج حسن خلال فترة حياته القصيرة الكثير من الأعمال الفنية في مجال الرسم والتركيب في فراغ والفيديو، واقام وشارك في العديد من المعارض في بغداد، الاردن، فلسطين، نيويورك، قطر، كوريا، الشارقة، مصر.

رسوم هذا الكتاب، هي تخطيطات ورسوم لمشروع كتاب (حسن في كل مكان) والذي سيصدر في أواسط العام ٢٠٠٤ عن مؤسسة القطان، أنجزها الفنان خلال فترة أقامته في نيويورك.

خالد الحوراني

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المديره التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإعداد والطباعة
بول ناسيميان،
بوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه - محامون"

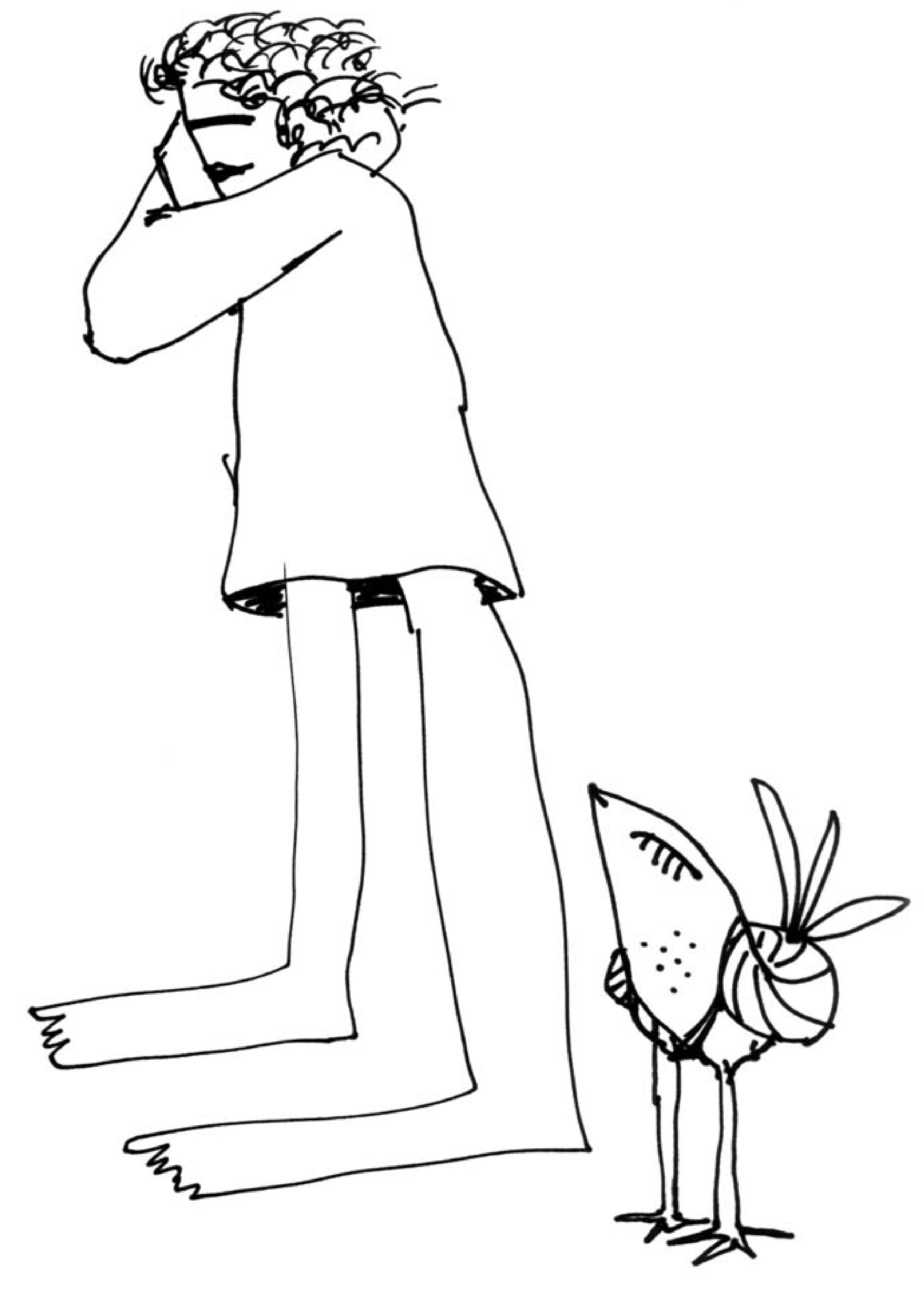
الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الهيئة الاستشارية
أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
جابر عصفور
سلمى حفار الكزبري
سمير سرحان
عبد الله الغذامي
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد عابد الجابري
محمود درويش
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري،
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

الصحف الشريكة
الأنباء الخرطوم
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصباح الرباط
طريق الشعب بغداد
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
النهضة بغداد
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الهجائي
حسب الاسم الأول



كتاب في جريدة
العدد الأول للانطلاقة الجديدة
التسلسل العام: عدد رقم ٦٦
(٤ فبراير ٢٠٠٤)
يصدر بالتعاون مع
وزارة الثقافة في لبنان.

برج حمود، ص.ب 80317
بيروت، لبنان
تلفون 60 798 (1-961+)
فاكس 614 791 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

الضوء الأزرق

الفصل الأول

التقيت به: صوفي من قونية، تركيا، من طائفة «الدراويش الدوّارين»، من أتباع مولانا جلال الدين الرومي الذي سنّ الرقص لهم وله. قال إن أباه كان ضابطاً تركياً أتى إلى الولايات المتحدة في دورة عسكرية ولم يرجع، فنشأ هو هنا، وتعلم الفلسفة وعلم النفس السياسي، وقرّر كتابة بحث عن القوانين التي تحكم الكون والذهن، فعاد لتركيا، وصار صوفياً، ثم ترك كل شيء وصار مجنونا أو مشردا، أو أية صفة أخرى نطلقها على من لا نفهمهم.

كنت أيامها في برنامج الماجستير في الأدب المقارن في جامعة واشنطن، سياتل، على الأقل، خارجياً كنت كذلك. لكن، داخلياً، كنت على حافة الجنون، أعني يهيمن عليّ رعب ما من أنني سأفقد عقلي. وجئت إلى هذه المدينة هربا من مدن كبرى مثل نيويورك، لأنه لا وقت عندي لمدن كبرى، ولا لشخصيات المدن الكبرى، كنت أبحث عن منطقة طقسها معقول، وقت لنفسي، ولترتيب فوضاي.

لأشهر، لم أتكلم مع أحد، وأتسكع وحيدا بين أشجار الغابة المحيطة بالحرم الجامعي، ليلاً، وأفكر، أفكر، أفكر.. أفكر دائما في شيء ما، في «مضمون» ما، فلسفة ما، قصيدة ما، أفق ما، ولكن، اكتشفت أن المشكلة ليست في «ماذا»، بل في «كيف» أفكر. ذهني كاميرا، عدستها غير دقيقة، أو منحرفة أو، ببساطة، غير صالحة، وكل صورها غير دقيقة، ومنحرفة، وغير صالحة.. «كيفية تفكيري» هي العدسة.

منذ زمن وأنا أعتقد بأنني سأجنّ.. أحدّق في المرآة وأنا أحلق لحيتي، وأقول لنفسي: «ابق على الخط».

منذ الطفولة، كنت أفقد إدراكي بين فينة وأخرى. مرة في بيروت ذهبت إلى سينما «كارمن» لمشاهدة فيلم «مقتل يوليوس قيصر»، وخرجت من السينما إلى شارع من الأضواء والسيارات والحركة الحديثة (سنة ١٩٦٤). وفجأة، لم أدر أين أنا، ولا أين الطريق إلى بيتنا، ولا ما هو هذا المكان ومن هم سكانه، وزاد من خوفي ما كنت سمعته من إشاعات، عن عصابات لسرقة الأطفال، مثلاً، عن امرأة تلبس خماراً في باص على الحدود السورية – اللبنانية: صيف، حر شديد، وعرق على الوجوه، وفي حضنها طفل ملفوف ببرداء. قال لها الشرطي أن تكشف عن وجهها لئلا يختنق من الحرّ، ولم تكشف، فشك في أمرها، وأزاح الغطاء فوجد طفلا صغيرا ميتا، شق المهربون بطنه وحشوه بالحشيش وخيّطوه. وامتزجت هذه الإشاعة في ذهني بالفيلم الروماني، وصورة وجه قيصر على طول الشاشة في فراش الموت وهو يرشح عرقاً..

لم أدر أين أنا.. سألت رجلاً عابراً في الزحام عن الطريق إلى «كورنيش المزرعة»، فنادى على شخص آخر وأوصاه بي، ومشيت مع هذا «الآخر» في شوارع كنت مشيتها ألف مرة سابقاً، ولكنها الآن بدت غريبة تماماً، ولا أعرفها. عادة ما أستيقظ من هذه الحالة التي تشبه التنويم المغناطيسي أو «السرنمة»؛ (المشي نائماً) عند رؤية شيء معين أعرفه تماماً، علامة ما تعيد لي الوعي المألوف، وفجأة، بعث الله بالعلامة: بمحلٍّ لبيع الورد في الكورنيش يقع بيتنا قربه، واستيقظت، وقلت للغريب إن بيتنا هنا، لكنه حاول إقناعي بأن بيتنا بعيد جداً من هنا. ولما رفضت، أخذ بعض الليرات التي عرضها عليّ للإغراء، حاول جرّي بالقوة من رسغ يدي.

كنت قويّ البنية، ووجد صعوبة في جري، ولم ينقذني غير رؤية شرطيين أمام مقر مجلة «الحوادث» –بناية ذات بلكونات مرصعة ببلاط أزرق صغير، وكنت أسميها «البناية الزرقاء» – فهدّدته بأنني سأستنجد بهما، وأشرت للشرطيين.

«فقدان الإدراك؟» حالة محيّرة ، لا مسماة، وتتكرر..

وصلت الحالة في ١٩٨٥ حدّ أخذ حبوب منومة، وأدوية لتهدئة الأعصاب. في إحدى الليالي، وكنت نائماً في بيتنا، شعرت بشيء ما بدا وكأنه يقبّلني على عينيّ، فانتفضت واقفاً ومرتعباً.

كنت أرجف إلى درجة أنني كنت أعي كل شريان دم في جسدي، وكل عصب، فيض من الطاقة الإستثنائية، كنت أرقص مثل دمية، غير قادر حتى على الوقوف الطبيعي، وشعرت بأنني سأموت الآن، في ثانيتين، بتفجر القلب أو الدماغ، فركضت بأسرع ما عندي لكي أستنزف شيئاً من الطاقة.. ركضت، ركضت بأقصى قواي في الواحدة ليلا، لساعة تقريبا، ولما توقفت، وجدتني في جبال خالية، برية، بعيدة عن أي إنس أو جن، وفوقي قرص القمر بدا قريباً جداً، بين غيوم بيضاء تسبح من حوله وكأنه سيسقط عليّ، حالة من «حضور الأشياء»، وكأن الكون سيبتلعني، فضربت جبيني بيدي وأنا أتمتم لنفسي: «هذا قمر! لا تنسَ! هذا هو القمر! لا تنسَ!»، كل ما أدعوه «عقلاً»، كل «أسماء» الأشياء، كل «ذاكرتي»، بدا في خلفية رأسي، كملف لا فائدة منه، وبرز حضور آخر، وكأن الله يتجلى.

وبقيت على هذه الحالة حتى طلعت الشمس، فاستلقيت على صخرة تحت أول الأشعة وغفوت حالاً من شدة الإرهاق. كم شعرت بالأمان، كم شعرت، لما انتهى الليل.

مقدمة في علم نفس الضباب؟

غريب كم يبدو المكان كمصيدة أحياناً. لسبب غامض، وجدت نفسي أقضي جلّ وقتي في سياتل متردداً بين أمكنة ثلاثة: سينماتك «الوهم العظيم»، وحانة «القمر الأزرق»، ومقهى «المخرج الأخير».

جذبتني أسماء هذه الأمكنة، جذبني أكثر اسم «القمر الأزرق». اللون تحديدا جذبني.

قيل: الأزرق مضاد للهياج الجنسي – كنت ثوراً جنسياً –، وقيل مهدئ للأعصاب – كنت على حافة الجنون، والعصبية إرثي، أبي مشهور بعصبيته.

قلت: اللون جذبني. تعتقد الطائفة الصوفية «النقشبندية» أن في الإنسان عدة أنفس، ولكل نفس هالة أو ضوء خاص بها. الأزرق لون «النفس الأمّارة بالسوء» (نفسي كانت تأمرني ليس فقط بالسوء بل حتى بالجريمة، وكنت أخشى من أن تنفصم شخصيتي وتقوم إحدى الشخصيتين باقتراف جريمة لا تعرف عنها الشخصية الأخرى)، أما الأحمر، فلون النفس «الملهمة»، والأبيض لون النفس «المطمئنة»، والأخضر لون النفس «الراضية»، والأسود لون «المرْضية» (أرضاها الله)، أما الأصفر، فلون النفس «اللوّامة».

لكن لكل نفس، في رأيي، ألوانها الخاصة. يقولون في بوذية «التبت» إن الأزرق هو لون أول كائن فاض عن طبيعتنا الأولى، التي لا لون ولا هيئة لها. الأزرق لون طاقة الخلق فينا.

أذكر سنوات خلت كنت أغمض عينيّ فيها وأستمع لموسيقى كلاسيكية لسترافنسكي أو بيتهوفن أو موزارت.

دائما كنت أتخيل نفسي في واد في جبال طفولتي، ولون الوادي أزرق غامق، الصخور زرقاء غامقة، سحرية. هل كان هذا حدساً بطاقة خلق مكبوحة، أم مجرد حنين للطفولة، أم غربة عن كل شيء؟ لا أدري، لكن اهتمامي بالأزرق قديم. منذ الطفولة، علق في ذهني اسم «زرقاء اليمامة»، لا لشيء إلا لأن اسمها غريب وأزرق. وفقط حديثا، بعد عقود، بدأت في بحث لون اسمها.

«زرقاء اليمامة» أشهر عرّافات العرب قبل الإسلام. قيل إنها كانت أبصر من يبصر عن بعد، وكانت تمسح المسافات بعينيها وتنذر قومها بما ترى. وفي ذات يوم، رأت شجرا يمشي. كان الغزاة قطعوا فروع الشجر ومشوا تحتها كيلا تراهم زرقاء، ولم يصدق أحد ما رأته، فوصل الغزاة ودمروا اليمامة، ولما قبضوا على زرقاء قلعوا عينيها بحثاً عن سر قوتهما، فوجدوهما محشوتين بـ«الأثمد الأسود»، وهو حجر يدق وتكتحل نساء العرب ورجالاته بنثاره، وزرقاء أول امرأة فعلت ذلك.

الحجارة السوداء كانت مقدسة للربة القمرية القديمة، عشتار. ولذا، فإن اكتحال النساء بنثار الأثمد كان نوعا من الصلاة لربة القمر بأن تلهمهن بُعْد الرؤيا، «البصيرة» العرافة.. وعيون زرقاء «محشوة» بالأثمد الأسود، فهي عرافة قمرية. أما قصة الشجر الذي يمشي، فانتشرت في أدب أوروبا قادمة من الشرق: فالساحرات ينذرن ماكبث، في مسرحية شكسبير، بأنه سيموت حين تمشي غابة دولسنين.

لم أجد في الأسطورة ما يكفي لحلّ لغز تسمية زرقاء باسمها هذا، ومن المحتمل أن الأزرق لون إلهي يرتبط بالأزرقين: البحر والسماء. أما عند الفرس، في المزدكية، فإن للإله الأسمى، أهرو مزدا (القوة والحكمة)، «عدوا أزرق»، هو أهرومان.. فالأزرق إبليسي المعنى.

عندي، الأزرق لون الغربة، والغيب، وسماء الطفولة. وربما أن لنواياي السيئة لونا أزرق.. مرة تعلمت العزف على البيانو، و«ألفت» لحنا ساحرا، قصيرا، وعزفته لمدة طويلة جدا، يوما بعد يوم. ولم أنتبه لسرّ حبي له حتى قرأت كتابا لموسيقار أسود، يزعم فيه أن لكل «نوتة» موسيقية لونا خاصا بها، ولكل مقطوعة موسيقية لونا خاصا بها، فإحدى سوناتات موزارت





تثير في السامع اللون الأخضر أو الأزرق أو.. بحثت عن لون «النوتة» التي سحرتني، وذهلت عندما وجدت أن لونها أزرق. وانتبهت إلى كوني أحب بشكل خاص أغاني «البلوز»، التي تتضمن نوتة تدعى «النوتة الزرقاء».. البلوز!

«كانت لجده إمبراطورية

ولجدته إمبراطورية

وفي وسط شيكاغو، كان يفلت بجرائمه

ويركض ليلاً على تلال سان فرانسيسكو وهو يعوي مثل ذئب»..

وعند السود في الولايات المتحدة، الأزرق لون المعاناة، «لماذا أنا حزين وأزرق؟» (أغنية جاز للويس أرمسترونغ، على ما أعتقد).

تلبسني اسم «القمر الأزرق»، مثلما قلت. ولكن، عندما ذهبت لزيارته، وجدته حانة باهتة قديمة وقذرة، وقد حاولت الحكومة هدمها وإقامة مركز تجاري مكانها، فثارت ثائرة طائفة من المثقفين الذين اعتبروها معلما تاريخيا لروح مدينة «سياتل»، ففي ستينيات القرن الماضي، اندلعت الحركة الثورية التي هزّت الولايات المتحدة: حركة الحقوق المدنية والاحتجاج على حرب فيتنام، وبعض رموز هذه الحركة مرّوا بالحانة، فهي ذاكرة ثورية مكثفة.

سياتل مدينة فيها كثير من الحنين للستينيات هذه. لكن ما بين زرقة الاسم وبين واقع الحال هوّة تشبه كذبة: رف من الخشب على طول جدران الحانة مليء بكتب قديمة، وعلى المصطبة أعقاب سجائر لا تعد، وعلى الطاولات سكارى و«هيبيز» وعاشقو ستينيات، وهناك طاولة بلياردو قديمة، وقد تقشرت أرضيتها المخملية الزرقاء.

أما المخرج الأخير، فلون جدرانه باهت، عليه ورق حائط أكل الدهر عليه وشرب. وعليه يعلق كل من يعتقد بأنه فنّان لوحاته السيئة.. سألت صاحبه مرّة عن معايير تعليق اللوحات فقال: «لا معايير.. هناك شرط واحد فقط: ألا تكون اللوحة أسوأ من ورق الحائط».

لكن للمخرج لونا آخر، وبالأخص ليلا: طاولات خشبية فظة، وعلى كل طاولة مصباح «كاز» بإضاءة صفراء وحمراء شاحبة، ويبدو المكان موحيا، وشبحيا، وأميل للاصفرار.

عندما كنت طفلا، لم تكن توجد في قريتنا كهرباء، وكنت أقرأ وأكتب على شعلة مصباح «كاز»، مما جعل المصابيح وألوانها تسكن في أغوار اللاوعي عندي. وبدا، سرّا، بأن الأصفر والأحمر، أي الإضاءة الشبحية هذه، يربطان طفولتي بـ«المخرج الأخير».

لا أدري ما هي ماهية هذه الجهة الصفراء في روحي. مرة قالت لي رسامة إن الأصفر «لون الخوف». ومع النقشبنديين حق، على الأقل في حالتي: الأصفر لون شعوري بالذنب. حقيقة كانت تسحرني إضاءات الشوارع الصفراء في رام الله، وتحيّرني، مثلما كانت تحير هذا البروفيسور الأميركي الذي درسني الفلسفة في جامعة بيرزيت: دائما كان يجلس في بلكونه وأمامه شمعة مضاءة ليلا، مع قنينة نبيذ، مما جعله يفقد بصره لاحقا، وعادة ما كنت أراه واقفا لساعات أمام مدخل البناية التي يسكنها في رام الله ويحدق في مصابيح الشوارع الصفراء، الشوارع الخالية. الأصفر لون الإحساس بالذنب عندي، والخوف. ليل رام الله يبدو لوحة سائلة بالأسود تشقها قناة صفراء.

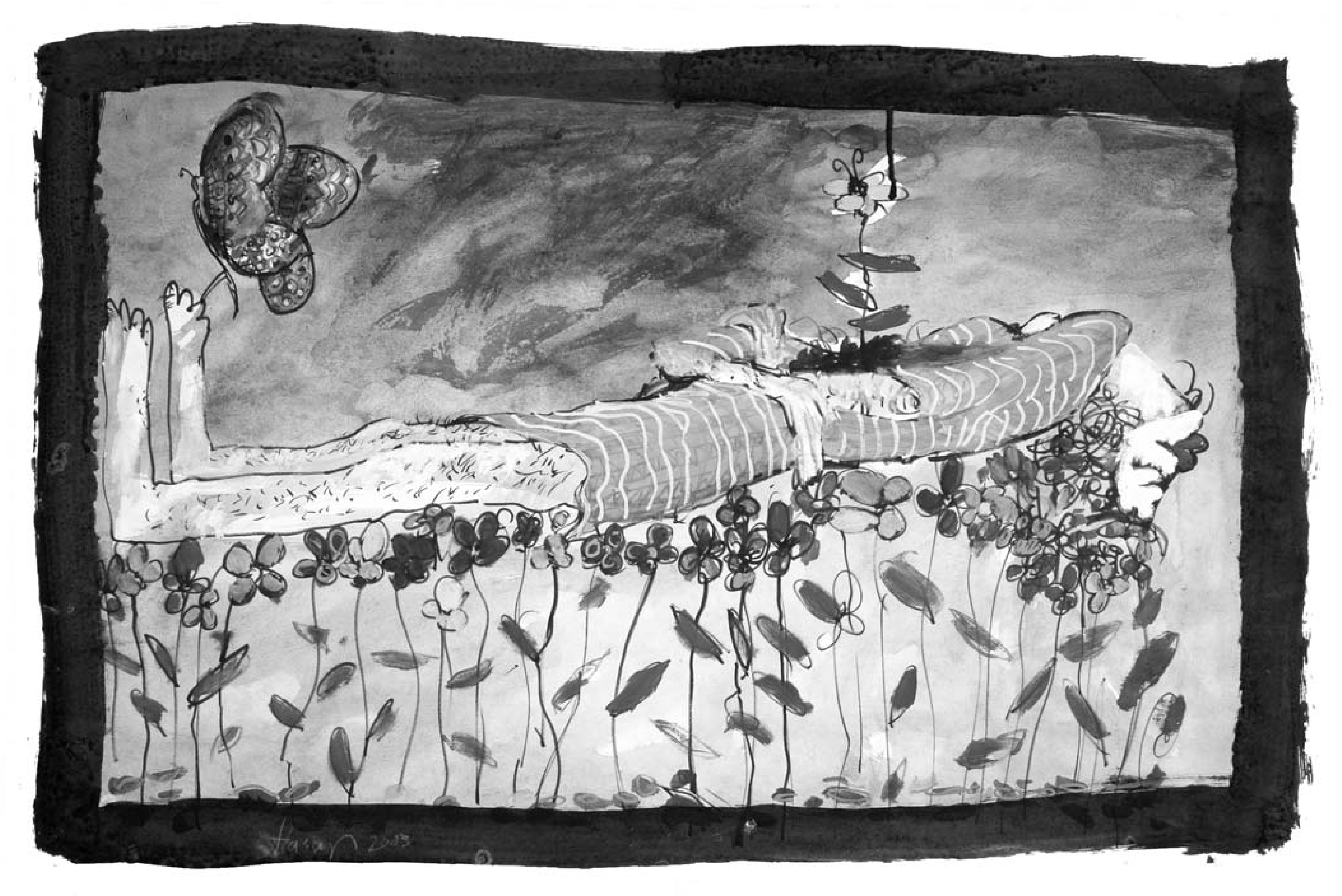
الأبيض قاحل، الظهيرة في فلسطين بيضاء تماما، في ضوء الشمس كل شيء واضح، محدد، ولا يوحي بشيء. في الأبيض لا أبدع شيئا، ولكي تستيقظ القوى الكامنة في أعماق الروح، لا بد من غموض ما، مثلا، اللون القمري، حين تفيض الجبال بالظلال و«تسيح» حدود الأشياء، فأتخيل شجرة السرو قرب المقبرة امرأة كأمي تلبس عباءة سوداء وتحاول ضمي إليها.

وكنت طفلا، مات لي أخ صغير، وكانوا أيامها، في ستينيات القرن الماضي، يدفنون الأطفال في أحد الكهوف الرومانية، ويدعونه الـ«فستقية» (اللون الفستقي للتراب).. دفنوه في «فستقية». قالت أمي: الأطفال لا يموتون، بل يصبحون طيورا خضراء في الجنة، تجري من تحتهم الأنهار، ولم أقتنع. وفي ليلة واسعة ومقمرة وخالية، وقفت أمام الفستقية: أردت فتحها وإخراج أخي من هناك. وتخيلت جميع هؤلاء الأطفال الموتى يخرجون منها بأكفانهم البيضاء – إن كانت لهم أكفان – ويسيلون في ضوء القمر، ويسيرون في الجنائن بين ظلال الزيتون والصمت. اللون القمري دليل على يقظة قوى الخيال التي تعيد صياغة العالم، على ما هو أنثوي فينا، على «الربة البيضاء» التي جعلت زرقاء اليمامة تكتحل بنثار الحجر الأسود.

في فلسطين، لون الذاكرة قمري، فالقمر هو الضوء الوحيد في الليل الذي يكشف معالم الأشياء للفلاحين. الضوء الآخر هو «السراج».. به تضاء قبور الأولياء المقدسة.

ولقروي فلسطيني مثلي، لا يمكن فهم الغربة، غربته عن العالم أو نفسه، إلا بفهم انتقال الثقافة الفلسطينية في القرن العشرين نقلة ضوئية: من القمر – السراج إلى الكهرباء، مثلا إلى النيون.. النيون أبيض، يشبه القيح، لا يطاق، بارد، ويبدو أنه يدمر الدماغ، شمس من كهرباء. غريب كم يبدو المكان كمصيدة، أحيانا.. وجدتني أتنقل بين هذه المقاهي الثلاثة، وأبحث عن نفسي، ليس في الكتب، سئمت كل الكتب، بل في المقاهي، بين المشبوهين بالجنون، والشواذ، والصعاليك، حيث الخرائط أكثر دقة ووضوحا وإثارة، أو، على الأقل، لأنني من هؤلاء، لم أتكلم مع أحد لتسعة أشهر، لم أكن أعرف أحدا، وكنت أمشي حتى الصباح في الغابة المحيطة بالجامعة، ولكن الله كان يحيطني بكل عالم الهامش هذا، بكل جاذبيته.

في ممر في الغابة الصغيرة حول الحرم الجامعي، رأيت شخصا بلحية طويلة تصل خاصرته، بيضاء تماما، وبوجه متورد من الخمر، يبتسم لي بفرح وكأنه يرى بشرا لأول مرة في حياته،



شخصا فرحا للغاية، يجلس على درج من الحجر ويسكر مع قنينة «فودكا».. طلب مني دولارين.. «من أنت؟» سألني. «أنا حسين، اسمي حسين، وأنت؟». «أنا الله!» قال. ضحكت. «وماذا أتى بك إلى الأرض؟». قال: «لي رف صديقة في سياتل». وضحك ببراءة. «أهلا». قال. بالقرب من هذا الذي يعتقد بأنه الله، محل للألعاب الكهربائية لكل من يعتقد بأنه بشر.. كل أشكال العنف التي خلقها الله أو عبيده موجودة في تلك البناية ذات الهيكل المعدني: كراتيه، سباق سيارات، قصف مناطق، مقارعة أشباح، غارات جوية. كنت أجلس فيه وأراقب رواده. لاحظت شخصا بالذات يأتي بانتظام، في ساعة محددة، الثانية عشرة ليلا، وهو يرتدي «لباس المارينز»، وقفازات عسكرية، وحذاء عسكريا، ويؤدي كل طقوس الطيران، ثم يجلس ويلعب بجدية كاملة: لعبته قصف «العالم الأحمر»، أو «إمبراطورية الشر»، التسمية التي كان أطلقها الرئيس الأميركي رونالد ريغان على الشيوعيين أيامها. وكل شخص هنا تتلبسه فكرة خيالية عن نفسه، فكرة أنه «طيار»، مثلا، أو لاعب «كونغ فو» متفوق في معبد صيني قديم.. وهناك من تتلبسه أفكار أخرى مثل هذا الشاب الأسود الذي اقترب مني بحثا عن مشاكل، لا لشيء إلا لأن شعري طويل وأشقر، وهذا بالذات أثاره، فلمس شعري باحتقار وقال إنه حلو.

كل فرد في العالم يقاتل أشباحا خاصة به، وهذا شاب يسكنه شبح «أبيض» وقديم، من أيام اصطياد السود من إفريقيا وبيعهم في «العالم الجديد». قلت له (أو للشبح الذي في ذهنه): «لست من أميركا، ولا أبيض، أنا من فلسطين». توقف عن السخرية وذهب.. مشكلته «البياض في العالم». له صديق كبير البطن، بأنف مفلطح مثل الفقع، وقبيح ككل، ببسمة مواربة، جلس قربي وقال – عندما عرف أنني عربي– أن العرب ليسوا من أفريقيا، وأنهم مستعمرون غزوها واستوطنوا في شمالها، والحل أن يخرجوا من القارة. وقال إنه «قومي إفريقي»، قلت إنني من فلسطين، ولم أدخل قارة إفريقيا، حتى العربية منها، ولا مرة في حياتي. السود نادرا ما يأتون إلى هذا المحل الضخم الأبيض، وإن قدموا تلبستهم فكرة أنهم «سود». قلت لبنت سوداء وجميلة هناك، مخرجة لفيلم وثائقي لم أره، إننا، نحن العرب، نحس بقلقلة في أغوار هويتنا، فنبحث عن «جذورنا» في الإسلام في القرن السابع، أو في أبعد من ذلك.. منا من يرجع لجذوره الفرعونية، أو الفينيقية، أو الكريتية، فنحن الفلسطينيين، أصلنا – مثلما يقال – من شعوب البحار التي كانت تطوف البحر المتوسط، ومنا من رجع بهويته إلى كريت، قبل آلاف السنين.. وهذه الجذور حيّة رغم قدمها.

تخيلي أن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، بعد إخراجهم من بيروت بالسفن في ١٩٨٢ رجعوا لأصلهم: البحر. عندما وصلت سفنهم لكريت أنزلهم الكريتيون على الشاطئ، وأقاموا لهم ولائم، وقالوا: «أنتم أبناؤنا الضالّون». قالت: «مشكلة السود مختلفة.. إن حاولنا الرجوع إلى «بدايتنا» في أميركا، نرجع إلى العبودية في مزارع القطن، ولا يمكن بناء هوية أساسها أن أكون عبدة في نظر نفسي وغيري».

اختفت تلك البنت السوداء بلا أثر في اليوم التالي، ولم أرها أبدا. في عالم الهامش هذا، كل شخص عابر مثل مشهد في فيلم. وفيه قد يمر عبقري وقد يمر مدمرو دماغ، أو ما بين بين، مثل «جوني».

«جوني» شاب تكسّر سرب من أسنانه العلوية، وبقيت السنان الأماميتان، فبدا لي كأرنب، نحيف وطويل، ودائما على شفتيه بسمة طيبة. سألته عن نفسه، فقال إن أمه قتلت، قتلها «الرجال الخضر الصغار» القادمون من الفضاء السحيق. «أين؟» «قرب البحيرة الخضراء» (بحيرة في سياتل). قلت له كيف تستطيع أن تتأكد؟ قد يكون قاتلها من الأرض. قال إن الحكومة الأميركية قبضت عليهم واعترفوا. «وماذا ستفعل بهم الحكومة الأميركية؟ هل ستطبق قوانين الولايات المتحدة على سكان الفضاء السحيق، أيضا؟». قال: «لا! سيبعثون لكل ضحية لهم، مثلي، برجل صغير أخضر منهم، ليفعل به ما يريد». «وماذا ستفعل برجل من الفضاء جاءك بالبريد من واشنطن د.س.؟» ابتسم – كعادته – وأجاب بعد أن أبدى إعجابه بأسناني الأمامية، «سأبعثه إلى المدرسة في سياتل، ليعرف أن مدارسنا ممتازة، مثل مدارسهم فوق!».

واختفى جوني لمدة شهرين، وفجأة، ظهر بقبعة كاوبوي في مدخل محل الألعاب، مبتسما كعادته. ماذا حدث؟ قال: لا شيء. كنت أمشي عاريا في الشارع فألقت الشرطة القبض علي، دون إبداء أي سبب، مجانين! وتأرجح رأسه من شدة العجب من غرابة سلوك الشرطة.

كان جوني ينام في أماكن محددة، بقرب جذع شجرة مثلا، وأحيانا يستولي مشردون آخرون على مكانه. هذا هو جوني: إنسان بلا مكان كون لنفسه هوية «متخيلة»: رواية عن فقدانه لأمه، وعن صلة فقدانها بمخلوقات خضراء من الفضاء السحيق. مرات، تحت تأثير المخدرات، كان يتخيل ديناصورات تنظر إليه من بين أعالي شجر الغابة، ويحيا بعمق في عالمه المتخيل. ومن أنا؟ شخص يصر بأن له «هوية حقيقية»؟ لم لا أنحت رواية، محض خيال، عن «جذوري»؟ وما الدليل أن جذوري «حقيقية»؟

جوني كائن خفيف: لا يحمل تاريخا. أما مواليد برج حوض البحر الأبيض المتوسط من أمثالي، فهم ورثة الثورة الزراعية واستئلاف الماشية في العصر الحجري، ورثة أقدم ثورة في التاريخ، ونشوء القرى والمدن. وتلبسني هذا التاريخ السحيق: ولدت في قرية، وذاكرتي قروية، وبابل ومصر إرثي، أما أشكال جوني، فلا ذاكرة لهم إلاّ «المدن الكبرى» الحديثة، لا يعرف ولم يسمع بشيء يدعى «قرية» أو «فلاحين». الحضارة الأميركية البيضاء مثل جوني: بلا تاريخ يذكر، خفيفة. التاريخ في البحر المتوسط عميق وثقيل، في أميركا «سطحي»، وإلى حد ما ضحل. أشعرني جوني بأني من عالم آخر، من نفق في الزمن يمتد إلى العصر الحجري، لست ابنا أصيلا للمدن الكبرى الحديثة.

لجوني صديق ألماني حليق الرأس، لوطي ولطيف، يربط جبينه بمنديل أحمر، وذكي جدا. التقيت به في محل الألعاب الكهربائية فقال عنه: «هذا محل يبيع جنسا وتخيلات». دقيق: قلة

تنتبه لـ«تجارة الخيال» هذه. أما عن عالم «الهامش» الذي يحيا فيه فقال: «الحواف متوترة». «أية حواف؟». «الحواف على جانبي السياج الذي يفصل العادين عن المشردين!». أعجبني التعبير: «السياج».
غريب كم يبدو المكان كمصيدة. كنت عاقلا، ومثقفا، وطالبا في الدراسات العليا، وكل شيء يبدو على ما يرام، وفي الداخل صحراء فيها كائن قاعد على ركبتيه في الفراغ و«يأكل قلبه»، كما يقول شاعر إنجليزي، «فسألته» هل هو مرّ؟ قال «مرّ جدا يا صديق».
سينماتك «الوهم العظيم» بدا سخرية مني.. كل حياتي وهم صغير، كنت أدرك ذلك، لكن كونها «وهما عظيما» اقتراح جديد. مقهى صغير له درج صغير، وحول السقف، من الخارج، مظلة استحالت من المطر والزمن إلى خشب كالح فيه تمتزج الزرقة والخضرة بالرمادي، وتحتها، أعني المظلة، مقاعد من خشب أشد كلاحة وقدما. وعلى مقعد كهذا، منه تبدو خيوط المطر مثل قضبان زنزانة تسقط باستمرار، التقيت بسوزان. حطام امرأة من بقايا حركة الستينيات الثورية، مريضة، ووجهها ناضج، بشفاه حمراء عريضة وشهوانية، ويحمر من الخجل كبنت صغيرة، ومطوق بمنديل أبيض، وإن حركته، تحركت غدد من الشحم تحت ذقنها، لا حبيب ولا أم ولا أب ولا أصدقاء، وكل ما تملكه دفتر رسم أبيض ترسم فيه دائما طاووسا أزرق، وتعيد دائما نفس الرسمة. كانت جالسة هناك عندما نظرت إليّ بدقة وقالت: «أنت تحيا في داخل رأسك». صدمتني دقة الجملة: «أحيا في رأسي»، أي لست حتى نصف حيّ.. أي فيّ صحراء أو جثة، لا فرق. من الخارج، كنت مرحا، واثقا من نفسي، وأفيض بالحياة، أدعي ذلك أو أتظاهر به. ولا أدري أين نفصل بين الإنسان وبين ما يدّعيه عن نفسه، ويتظاهر به.
دعوتها لبيتي.. ولبيتي جدار من زجاج، وبين الكتب على لهيتشكوك..
بعدها، تعرفت على صديق لسوزان أسوأ من الطيور، صلب البنية والوجه يدخن ويقذف البصاق من فمه، ويلبس ملابس ذات ألوان فاقعة، برتقالية وصفراء وحمراء، وسر ذلك أنه من أعضاء «طائفة راجنيش».
وراجنيش هذا هندي جاء إلى أميركا مبشرا بالنشوة والبهجة والتنوير والرقص، وتكونت طائفة خلف هذا «المعلم»، تلبس ألوان النشوة والبهجة والتنوير والرقص. وكلهم متشابهون كوجوه كنيسة الديانتيك، ولكن في البهجة والنشوة والتنوير والرقص، ويكتب قمامة شعرية محشوة بمفردات البهجة والنشوة والتنوير والرقص، وسر ذلك أنه أناني مطلق، فردي ضيق الأفق، غاضب، ولا يشعر بأي شيء من البهجة والنشوة والتنوير والرقص، ووجوده زائف أكثر من وجودي، وبالتالي، مدمن على المخدرات.. سكن معي ليومين فقط وطردته..
كنت أسكن في «أستوديو».. نصب في وسط الأستوديو قطعة قماش صفراء على برتقالي على أحمر فيها بقع متسخة وتفوح منها رائحة البخور والطيب الهندي، لكي تتغلغل في روحه النشوة والبهجة والتنوير والرقص، وصار يمنعني من المرور عبر «ستارته» لأي مكان آخر. هناك من هم مصابون بإمساك كوني، وإسهال شعري، ولا يعرفون أن المشكلة في شعرهم ليست في شعرهم، بل في خراب علاقتهم بالكون والحياة، ولا يوجد أي «راجنيش» يمكن أن يغيرهم، أو يغير شعرهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم. تعرف على فتاة ضائعة من شيكاغو، هجرت عائلتها، مهزوزة مثل شبكة تنس، سكنت معه ومعي. قالت لي إنه لوطي لا يهتم بالجنس معها، وفهم من ذلك أنها تميل إليّ، أي أنني لا أشعر بالبهجة والتنوير والنشوة والرقص، أي لست من أتباع طائفته، فهاجمني، فطردته.

في «الوهم»، كنا نلتقي، كل هذه الأشكال. قالت لي سوزان مرة وهي تحدق في خيوط المطر النازلة كقضبان زنزانة، «نحن لسنا من لحم ودم، جئنا من الروايات وإلى الروايات نذهب! اكتب عنا رواية، يا حسين، نحن رواية».
ولا تكتمل حكاية من دون «دون».. رسام مشرد بلحية حمراء فاتحة، وصلعة صغيرة عليها قبعة بيريه رمادية.. كائن شفاف وهش، وأنعم من دمعة، وقبل أن يتكلم، يرسم بلحيته شبه دائرة على صدره، بحركة بطيئة، وكأنه يقاوم قوة مكبوتة تمنعه من النطق، وصوته مثل صلاة.
ما زلت أذكره واقفا يلعب البلياردو في حانة القمر الأزرق، وذلك الصوفي من قونية يمط رقبته نحو «دون» قائلا: «أنا لا شأن لي بغيري» فيرد دون: «إذن، اذهب وكن قنديل بحر» (سمكة شفافة تشبه القنديل وسامة جدا). فيلف الصوفي سيجارة تبغ ويتمتم: «إن الله يتكلم».
ليلتها، جاءني دون على بيتي: لحيته تقطر مطرا، وهيئته يرثى لها، وفي يده حلقة خشبية متسخة ومبلولة. حسبته جاء لينام عندي فدعوته للدخول، فناولني حلقة الخشب قائلا:
«هذه هدية لك، وجدتها في صندوق قمامة»
«وما هي دون؟»
«خذها.. هذه هي العقل.. دائرة من ثلاثمائة وستين زاوية، وبين كل زاوية وأخرى زوايا لا نهائية»
«نعم، زوايا لا نهائية، دون، ولكن ما دخل ذلك بالعقل؟»
قال: «كل زاوية طريقة نظر إلى الدنيا والحياة، تعلم من هذه الخشبة أن ترى دائريا، بثلاثمائة وستين زاوية، اقعد في الفراغ الذي في الوسط، وانظر دائريا، وابق قاعدا في الفراغ».

واختفى ثانية في العتم والمطر، لينام في الشارع. وبقيت واقفا في الباب والريح والحلقة في يدي. غسلت الحلقة وعلقتها على الحائط.. العقل «دولاب»، وكلما دار الدولاب تغيرت طريقتنا في النظر إلى الدنيا والحياة وأنفسنا، وتغيرنا.
بعدها، في صباح ما، طلب مني دون أن يأتي معي إلى الجامعة. «لا، دون، لا، آخر ما أحتاجه مشكلة في الجامعة. تعال، ولكن بشرط: أن تدخل القاعة من باب وأنا من باب، ولا أحد سيعرف أنني معك أو أنك معي». حرك لحيته الحمراء دائريا على صدره وبدا وكأنه يعجن قطعة طين صلبة وقال: «طيب، حسين، طيب، أنا أدخل من باب وأنت من باب».
في القاعة، كانت دكتورة يوغسلافية من هذه الأرستقراطية القديمة التي دمرها «تيتو» بعد إقامة شيوعيته في يوغسلافيا، وفي طريقة حديثها من «فوق الأنف»، ورفع رأسها إلى الأعلى كراقصة فلامينغو، لا تزال تسكن المواقف الأرستقراطية الموروثة. وكانت تلقي محاضرة عن تاريخ الأدب العالمي: «أول من استخدم تسمية «الأدب العالمي» كان الشاعر الألماني غوتة، وبعده لاحظ ماركس وإنجلز في «البيان الشيوعي» أن الآداب القومية المختلفة لمختلف الأمم بدأت تشكل أدبا عالميا واحداً».
«فجأة، رفع دون يده، فانتبهت القاعة إليه، وكل العيون غيرت زاوية نظرها وانتبهت». «هل تعرفين أن التماثيل الإغريقية قديما كانت ترى؟ كانوا يدهنون عيونها ورموشها، كانت لها عيون، وترى، كالناس، لم تكن عمياء، كما تعتقدين، كانت ترى». لم تدر الدكتورة ماذا يحدث، فقالت مرتبكة: «لا أعرف أنها كانت ترى». فرد دون «ألا تعرفين؟ إذن، اذهبي وكوني قنديل بحر»، ولملم قامته النحيفة الناعمة وخرج من القاعة.





مر زمن لم أر دون فيه، حتى اعتقدت بأنه لا يريد رؤيتي، وفوجئت به واقفاً ذات صباح أمام سياج حجري نشر عليه مجموعة من القمامات، من تنكة كولا فارغة وصدئة لبقايا ورقة، ويرتب ويعيد ترتيب «الأثاث» هذا. «مرحبا دون!».. نظر إليّ.. وجهه جائع وشعره منفوش، وعيناه فيهما تعبير شريد. لم ينتبه تماما. «مرحبا، دون، أنا حسين». «حسين؟ من حسين؟»، قال بصوت في غاية النعومة والانخفاض، وشرد وكأنه يحاول أن يتذكر. «حسين!».. «لا أعرف أحدا بهذا الاسم». وضحك من غرابة شكلي ورجع لترتيب قمامته.. دون كان يفقد إدراكه من حين لآخر، لمدة تطول أو تقصر، وفي هذه الحالة، لا يعرف أحدا.. كنت أفقد إدراكي مثله، ولكن بحدة أقل ولمدة أقصر.

على كل، عندما أفاق، تعرف عليّ ثانية، ولم أذكر شيئا له، لا عن فقدانه الإدراك، ولا عن حادثة القاعة، بل شكوت له من الملل من مدينة سياتل. «إذن، فلنغير الجوّ». ودعاني إلى محطة باص ركبناه حتى مدينة أخرى على شاطئ المحيط، ومنه ركبنا سفينة أبحرت بنا لمدة طويلة في زرقة الموج والشمس والزبد والهواء. نزلنا في جزيرة صغيرة فيها غابة أصغر منها. منظر إلهي: اتساع المحيط الأزرق الذي لا يعكره شيء غير «غيتو» بعيد للهنود الحمر، ومقابله قاعدة عسكرية للبحرية الأميركية.. الضحية وجلادها معا. على شفا منحدر صخري يشبه الهاوية، وأنا ممن يخافون الأمكنة المرتفعة، بيت جميل من الخشب. اتجه إليه دون وأخرج سلسلة من المفاتيح ودخله: صالة واسعة، أثاث بني جميل، مطبخ، مكتبة. «ادخل، هذا بيتي!». ذهلت تماما. «دون؟ أترسم في الشوارع وهذا بيتك، ارسم هنا». قال: «خذ المفاتيح واسكن فيه أنت!». لم أجب. «أنت كأمي: لا تفهم روح الفنان». وأشار من الشباك نحو بيت آخر، البيت الثاني والوحيد في الجزيرة، قرب الحافة أيضاً. هذا بيت أحد قادة الحركة الماسونية. النظام في الولايات المتحدة ماسوني. «كيف؟» قال: «انظر إلى الدولار: عليه صورة الهرم الأكبر وفيه «عين حورس»، وهذا رمز ماسوني معروف». لم أجب. ولكن تأكدت فيما بعد أن كلامه دقيق، تاريخياً. «سنقضي الليل هنا». «هنا؟». «نعم، السفينة لا ترجع اليوم».

يا إلهي! حاولت تخيل الليل وحيدا هنا، في الغابة والجزيرة وهدير المحيط! مقدمة لفقدان عقلي. طاقة المكان قوية، وذكرتني بجبل زرته مرة في منطقة «سنوكوالمه»: اسم هندي أحمر. شلال في عرق الجبل يهدر بين الرطوبة والحجارة السوداء، وجبل صعدته لساعات وغابت الشمس ولم تزل أمامي ساعات أخرى لوصول القمة. أخرجت قطعة خبز فنزل طائر ووقف على أصابعي وأخذ ينقر الخبز بأمان، كعادة الطيور التي لم تعرف الإنسان جيدا. عندنا، في فلسطين، العصافير مصروعة، تفر من أي دليل على أية ألفة بينها وبين الناس. هنا رواية أخرى. على كل، طاقة المكان، وأنا واقف ليلا عند الشلال، جعلتني أشعر بأن إقامة ليلة واحدة في عرق هذا الجبل تكفي لكي أبدأ الصلاة لقوى لا أعرفها.

جلست على مقعد جلد أسود في المكتبة وسألته عن هوسه بالنفايات، «لا بد أن يزيحها شخص ما، سواء أكان أنا أم غيري». لم أقتنع، فلم يكن يكنس الشوارع بل ينتقي قمامات معينة: علب كولا قديمة، بقايا كتاب، حلقة خشب مبتلة، أوراق شجر يابسة، وأدركت سوزان ذلك، لأنها كانت تحب دون، وحاولت إقناعه بأن يترك «هوايته»، فقال: «وماذا أفعل بحياتي بعدها؟». قالت: «هذه نقطة، دون، نقطة، ولا جواب عليها». أعني أن التاريخ يترك الناس أحيانا بلا شيء يفعلونه بتاريخهم.

والتقيت به أيامها، ذلك الصوفي من قونية. قال إنه أصلا من تركيا، ثم صار أميركيا، «أما الآن، والحمد لله، لست أي شيء». أول ما رأيته في الوهم العظيم. كنا أنا وسوزان هناك، هي ترسم طاووسا أزرق، مدمنة عليه، وأنا أنظر إلى رذاذ المطر فوق الإسفلت القريب. ورأيته صاعدا نحونا: لفتت نظري طاقته، تشبه الأرض والفقع. لكن هيئته كمحارب قديم من أصل رعويّ: حذاء عسكري ثقيل مربوط جيدا وكأنه في حالة «طوارئ»، ومعطف شتوي أخضر من النوع الذي تلبسه البحرية الأميركية، ويحمل عصا برية، فظة، فيها عقد، خارج السياق تماما. أسند عصاه على المقعد الخشبي وبدأ يلف سيجارة تبغ تركي من نوع «عثمان». أصابعه بيضاء، ناعمة، فيها أنوثة، وترك الدخان على رؤوسها صبغة تشبه الحناء، ولكن الشعر على يده غزير، وأسود، وفيه رجولة. وكأنه تناقض في التعبير. أعني، لا يمكن جمعه إلى بعضه ليكون شيئاً واحداً.

جلد وجهه قمحي، فيه أخاديد عميقة وقاسية كمن تعود العيش في البر والشمس، وله شارب أسود مستطيل وحوافه مهشمة، ولا تستقر العين لا عليه ولا على الشفتين العريضتين تحته، لأنها تصعد لا إراديا إلى أنفه: ضخم ومتقوس ويهيمن على الوجه كله. صوته فيه عمق البحر، وحرية الهدير، وجنون آخر. عرفتني سوزان عليه. «بري، اسمه بري».

«كتبت قصة صغيرة، سوزان، ولو كنت مكانك لأحببت الاستماع لها». ضحك، وفتش في جيب معطفه وأخرج ورقة مبتلة ممزقة. «وأنا عائد اليوم إلى بيتي التقيت بصديق قديم: أرنب، قلت له تعال معي، عندي هدية فخمة تليق بك: جزرة». كان يضحك بعمق ويقرأ بلذة، وفجأة قام بحركة غريبة سأراه يقوم بها مرارا: بدا وكأن شيئا، شبحا ما، ظهر له، وارتبك، وركز نظره في نقطة في ذهنه، ورمش بسرعة وخوف عدة مرات، وهز رأسه بعنف هزات خفيفة، وبدا بأن بصره كان مشوشا، ولا يبصر الورقة التي في يده. كل الحركة استمرت لثوان فقط. وأكمل ضاحكا بعدها وكأن شيئا لم يكن: «قفز على طاولتي وأكل الجزرة، وثرثرنا، ثم نزل تاركا لي كوم خراء وراءه. ولا أي حس عندك بالخجل يا رجل؟ تفعل هذا بي؟ أجابني: لا تأخذ من الدنيا إلا الذي تعطيه لها».

جرحت «عقلي الجماليّ» كلمة خراء. غريب كم بدت وكأنها بقعة من ضباب أصفر انتشرت في الجو وفي جسدي، ولم أنتبه حتى له ولسوزان، وكأن هذه اللفظة تحكمت أيضا بما أنتبه ولا أنتبه له.

عندما تناول عصاه ومشى فقط انتبهت. استدار بعد خطوتين وقال لسوزان «مري على بيتي يوماً ما». دعوته بدت جنسية، وإلا لماذا استثناني؟ وكأن سوزان أرنب تبحث عن جزرة أخرى عنده. واحمر وجهها من الخجل. وأكمل «مري يوما ما، عندي قهوة!» وفرطنا جميعا من الضحك.. ومضى.

رجعت سوزان ترسم طاووسها الأزرق في مساحة فراغ بدت من ضوء المساء الخافت مقمرة، والزرقة أخذت بعدا آخر، وانعكست في المساحة المجاورة. نظرت نحوي دون أن ترفع رأسها وقالت: «عند بري أبعد مما يبدو لك». ولم أدرك أن هذه نبوءة.

في صوته أعماق بحرية، وصدى هدير ذكرني بليلة كنت مشيت فيها حافيا، والرمل مبتل، في شواطئ عكا، كنت دخلت عكا سرا، دون تصريح عسكري إسرائيلي، وأخشى أن يقبض البوليس علي بتهمة التسلل، وعلى بقعة في الرمال أمامي أضواء باهتة تأتي من شبابيك مطعم، وكأنها تنوي كشفي، فهربت إلى مراقبة بقع من الزبد المتلاطم تبدو مقمرة، غامضة، بدوامات تتكون وتنهار في وسط موج أسود غامق منه تبزغ وإليه تعود. وبدا لي فم بري وهو يضحك أشبه ما يكون بهذا الزبد. وذكرني هذا الزبد بزبد آخر في بحر آخر في زمن آخر.

في ستينيات القرن الماضي في بيروت، قالوا لأمي إن القشرة في شعر أختي الصغرى لن تزول إلا إن غسلت بماء البحر. ذهبنا أنا وأمي وأختي إلى «الحمام العسكري»، في المساء. كانت الظلمة تهبط بالتدريج ويزداد ميل البحر إلى السواد، وكان البحر هائجا، والموج يصدم الصخور الكبيرة ويتطاير منه رذاذ قمري اللون بارد. نزلنا على منحدر ترابي حاد ثم على أول الصخور. وقفت أمي أمام البحر بخوف، وترددت، ومسحت أبعاده بشرود: لا أحد على الشاطئ، كشفت خمارها، ومشت نحو قناة صخرية ضحلة بالكاد يصلها الماء. قرفصت وغمست يدها في القناة ودهنت شعر أختي، أما أنا، فقرفصت قربها، وظهري نحو البحر، وانهمكت في محاولة الإمساك بسمكة صغيرة تنط وقد حشرها القدر في قناة معزولة. فجأة، صرخت أمي صرخة فيها رعب حيواني، وشعرت بيد تقبض على قميصي من الخلف، وموجة تغمرني حتى الخصر. سحبتني يد أمي من البحر، وجرتني نحو المنحدر، ولما اطمأنت تركتني لتسكت بكاء أختي في يدها الأخرى. كنت أشعر بالخوف في رجليّ، وبالكاد أستطيع صعود المنحدر، فنظرت للخلف، وبدا وكأن البحر سيلحق بي. ليلتها، حلمت بالبحر يطاردني، ولسنوات، تكرر الحلم نفسه. قالت لي أمي أن أضع ورقة من القرآن الكريم تحت رأسي لـ«إبعاد الشر»، وضعت «سورة مريم» تحت مخدتي، ثم سورة «يوسف»، ثم القرآن بأكمله، وظل البحر يطاردني.

لم أكن قد رأيت البحر قبل ذلك إلا مرة واحدة في بيروت، صيفا. اتساعه، هديره، زرقته، تكراره.. ذهلت.. ولم أقترب منه.. كنت طفل جبال فظا، وفيّ خوف الجبل من البحر. وقفت بعيدا، في آخر رمال الشاطئ من جهة اليابسة، على مسافة منه، وتعريت تماما. ولكنني جلست على حجر وملابسي في يدي، وحدقت فيه. شمس ملتهبة في عز الظهيرة، ورمال بيضاء تلمع مثل مرايا على وشك أن تغلي، وأنا أراقب البحر من بعيد، وفي داخلي حذر اليابسة من الماء.

مثلما قلت، كنت أحلم بالبحر يطاردني.. يبدأ الحلم–الكابوس، ليس من «الحمام العسكري»، حيث كدت أغرق، بل وأنا على الحجر وملابسي بيدي. ترتفع الزرقة بالتدريج، وكأن البحر يدعوني إليه، فأهرب خطوة للخلف، ويهيج، فأهرب، ويلحق بي. وتغرق بيروت في الزبد والزرقة المتلاطمة والهدير، شارعا شارعا، أبنية تهوي، وأخشاب تطفو، وغرقى، وفي وسط الدمار وحش هائل الحجم، الـ«كينغ كونغ»، الذي كنت رأيته في فيلم في «سينما كارمن»، يسحق الأبنية بقدميه كدمى من الكرتون، وأمي تتلوى في يده، وهو يمسك بها من خصرها، ويرفعها إلى زرقة السماء، ولا تفلت منه، فأستدير وأهرب، أهرب، ليس نحو الجبال في «عاليه»،

أو نحو جبال الأرز الشهيرة في لبنان، بل نحو جبال طفولتي في رام الله. وينتهي الكابوس دائما هناك: وأنا واقف في أعلى جبل، كل الجبال الأخرى غرقت.. ولا جبل واحدا في الأفق، ولا أفق أصلا إلا مياه عكرة فوقها بقايا أخشاب وطيور ميتة وغرقى، والبحر هادئ، لا حمامة نوح ولا غصن زيتون، ولا يابسة في المدى، وأنا الناجي الوحيد، وعلى البحر أن ينتظر نزولي فيه، لا أن يأتي إليّ. بيننا لم تزل المسافة نفسها. في الحلم التالي، يكون البحر قد رجع إلى مكانه، وأنا إلى مكاني، وكأن شيئا لم يكن. أنا على الحجر، وترتفع الزرقة بالتدريج، ويتكرر الحلم، في شبه حركة دائرية لا تنتهي أبدا.

كان أبي يخاف عليّ من شيئين في بيروت: البحر والسينما. في الليل، أنتظر حتى ينام أبي، وأفتح شباك غرفتي وأقفز منه إلى ساحة بلاط واسعة ومغلقة، ومن بابها الزجاجي، أخرج نحو مدخل مزين بأشكال هندسية من الجبس والزهور، على النمط الإيطالي، وأنزل درجا من رخام أسود وأبيض، وأركض في الشوارع الخلفية الخالية إلى «سينما كارمن».

يبدأ العرض في العاشرة ليلا حتى الواحدة صباحا. كنت أدخل القاعة قبل أي إنسان آخر، لأراقب الحضور، وامتلاء المقاعد بالتدريج، وأهم من الفيلم، أن أشاهد الستارة تنزاح عن شاشة سحرية فارغة يشع منها نور خافت. كنت أرغب في «لمس» هذه الشاشة السحرية، ولا أصدق أنها من «مادة عادية»، ففيها رأيت حتى يوليوس قيصر.

في باب السينما، عادة ما كانت تجلس قارئة بخت شيعية بملابس سوداء، أمام صندوق خشب عليه أرنبان هنديان صغيران: أحدهما أسود «فأل شر»، والآخر أبيض «فأل خير». في سطح الصندوق شق فيه قصاصات ورق مطوية ومكتوب بختي في إحداها. تقبض على أرنب من عنقه وكأنها ستخنقه، فيفتح فمه، وتدور به فوق قصاصات الورق، وحين ترخي قبضتها يمسك بفمه قصاصة وتناولني إياها. وعادة ما كنت أمر على قارئة البخت هذه قبل دخول القاعة.

في ليلة لا بخت لي فيها على ما يبدو، استيقظ أبي ولم يجدني، بل وجد شباك غرفتي مفتوحا وسريري فارغا قرب الساحة الواسعة، فاعتقد أن عصابات الأطفال اختطفتني، وجن جنونه.

والآن، في سينماتك «الوهم العظيم»، ذكرني حديث بري عن الأرنب بهذه الحادثة، ولكنني اخترعت بخيالي تكملة للقصة: جاء أبي أثناء العرض إلى السينما بحثا عني، فوجد قارئة البخت عند الباب، وسألها إن كانت رأت طفلا أشقر الشعر في العاشرة من عمره يدخل السينما.

العرافة: قلت لي وليد صغير؟

أبي: أي نعم يا خالة، وليد صغير، وليد جبال، ولكنه يستيقظ فزعا كل ليلة وهو يحلم أن البحر يطارده.. أرأيته؟

العرافة: وليد جبال والبحر ساكن فيه؟

أبي: أي نعم يا خالة.

العرافة: فأل خير! سيسافر وليدك بعيدا، بعيدا جدا، في البحر، وهو يبحث عن أرنبين هنديين، وعن صندوق خشب فيه قصاصة ورق تخبره عن بخته، ثم يعود، فأل خير يا خال، فأل خير.

ضحكاته، ذلك الصوفي من قونية، أيقظت فيّ البحر، كما قلت، ولكن حكايته عن الأرنب أيقظت، ليس فقط «قارئة البخت»، وأرانبها الهندية، بل وذكرى أرنب آخر.

في أواخر سبعينيات القرن الماضي، كنت أعمل في نقابة المهندسين في الأردن. ومعي سمين، عريض الوجه، متدين، بلحية مقصوصة بعناية ومصاب بـ«عقدة العظمة»، كان يعتقد أنه من جلب الخميني إلى الحكم في طهران، وسيزيح السادات عن حكم مصر، ونسميه «معالي الوزير». والطريف فيه هو حديثه الدائم عن أرنب خاص به. مرة كان



يتمتم لنفسه «استقال القمر من الحب»، سألته «حب من؟»، قال «حب الناس الطيبين». «ومن القمر؟». «القمر الذي يحب الأرنب». «أي أرنب، فالأرانب كثيرة؟». «هناك أرنب يسكن في رأس الجبل، وليلا يدحرج حجارة ضخمة إلى الوادي، نحو بيتي، وبيتي، يا أستاذ حسين، في أسفل الجبل».

وتصادقنا على أساس احترامي لأرنبه واحترامه لي كأستاذ. حدث أيامها أن أعدم الحكم العراقي طالبا أردنيا في بغداد بتهمة التجسس، ونشبت أزمة دبلوماسية بين الدولتين. علقت على الحادثة بلؤم أو ببلادة، لا أدري، «هل أعدموا الأرنب؟». وفجأة، تحول وجه معالي الوزير إلى الأزرق الداكن، وكأنه يعاني من نقص في الأوكسجين، وشمر عن ذراعيه وجاء لمكتبي: «يا أستاذ حسين، أنت حمار! تتكلم بلا أدب عمن هم أكبر سنا من أبيك!». «متأسف يا معالي الوزير.. متأسف». ولم ترجع صداقتنا إلا حين سألته بعد يومين: «كيف كانت حال الأرنب الليلة؟»، فقال «كان هادئا ولم يدحرج ولا حجرا!».

لم أكن مهتما فعلا ببري وعالمه، ولا أدرك أن له «عالما» أصلا، لولا حادثة بسيطة قلبت المعادلة.

كنت لاعب شطرنج جيدا في يوم من الأيام، وأدمنت على اللعبة، وصرت «مقامرا». هناك نوع من الناس، مثلي، يدمن على كل ما يقع في طريقه، على التدخين، أو الجنس، أو الشطرنج، أو السكر، أو جمع النفايات، أو كتابة الشعر، أو اللقاءات مع صوفي، وحياته مسلسل من هذا النوع، إدمان في إدمان. لكنني كنت أخرج من إدمان إلى آخر، وفقدت حب الشطرنج منذ سبعينيات القرن الماضي، وسواء خسرت أم ربحت، لم أعد أشعر بشيء. لاعبت بري بلامبالاة، فغلبني مرة أو مرتين، وصار يقهقه عاليا، بسخرية مني، وإعجاب بنفسه. ركزت في اللعبة الثالثة وهزمته هزيمة ساحقة وسريعة. وضع يده اليمنى تحت أسفل بطنه، ورفعه، وتمتم تعويذة غريبة: «بيور بري أوم، أومني بدها أوم».

سألته «ما المشكلة؟». قال: «هم». «من هم؟». «هم، هؤلاء الذين يقتاتون على قواي». جمال لغته ساحر، ولكن فيها نفحة من الجنون، أو كما قال شكسبير: هناك عقل في الجنون. ركزت في اللعبة الرابعة أيضا، وكنت معنيا بأن يخسر لكي أراقب ردود فعله. قام بنفس الحركة المبهمة التي لاحظته يقوم بها في «الوهم العظيم»: حدق في نقطة في خياله، خائفا، وكأنه يرى شبحا، وأرجع رأسه إلى الوراء كمن يريد أن يبتعد عن شيء خطر، ثم أغمض عينيه مرتين بسرعة فائقة، وهز رأسه كمن يطرد بعوضة، وفرط ضاحكا.

«علام تضحك؟»

«يا رجل، هناك كائنات مرحة في الداخل أكثر مما في الخارج». شعرت بأنه حلزون أحمر في قوقعة من لغز يتسع. عندما خسر لعبة أخرى، تناول قلم رصاص مني، ورسم دائرة في دفتر كنت أحمله، وظل يكرر نفس الرسم حتى لم أعد أرى إلا بقعة رصاصية واحدة، وغمغم "بيور بري أوم، أومني بدها أوم". ولمعت في ذهني كلمات سوزان: «عند بري أكثر مما يبدو لك».

كانوا في المخرج الأخير يعتقدون بأنه مجرد مجنون، أو منفصم الشخصية كأغلبية رواد المقهى. ولا أدري لماذا شعرت أنا أيضا بجنونه، وبأكثر من كونه جنونا عاديا، وجذبني عالمه. كان يجلس قربنا، ونحن نلعب، رجل طويل جدا، يدعى «وين»، يقفل كل أزرار قميصه حتى آخر زر حول رقبته التي تبدو طالعة من القميص عندها كرقبة فرخ بط، على وجهه تعبير دائم من الدهشة، وكان يعتقد بأنني عبقري، ويقفل عينيه عندما أتكلم لكي «يركز»، فاقترحت عليه أن يركز بطريقة أخرى: فتح عينيه. كان «وين»، كلما رأى حركة غريبة أو سمع جملة لبري، ينظر إليّ، ويرفع حواجبه كمن يقول: «حالة فضائية ميئوس منها».

وكلما سألت بري سؤالا ما، أجاب جوابا يدل على عدم رغبة في أن يفتح لي أية بوابة أو ثغرة لأي حوار حقيقي. نادرا ما تحدث عن أية ذكرى من ذكرياته، وحتى الآن، لا أعرف شيئا يذكر عن ماضيه. كان بحارا، وطباخا، وصوفيا، وطالبا جامعيا، ومشردا. هذا تقريبا هو كل شيء أعرفه. وحيرني عالمه، كالبحر، وكنت أجلس على حجر في الرمال، عاريا، وطفلا، كما كنت في بيروت، وأحدق في جهات البحر الثاني: أغوار هذا المخلوق. مرت مدة ونحن، أنا وبري، على مسافة، لا هو يفيض كالبحر، ولا أنا أهرب كطفل الجبال. نقطة تشبه حركة «فريز» (التجمد في المكان) في المسرح.

في «المخرج الأخير»، ينظمون أمسية فنية أسبوعية، يأتي إليها كل من هبّ في ريح أو دبّ في أرض: شقراوات لفحتهن شمس كاليفورنيا إلى تماثيل مرشوقة بالبرونز، موسيقار كنت أراه ليلا في الغابة يؤشر لأوركسترا غير موجودة، صائد سلمون من الألاسكا يحمل آلة موسيقية بوتر واحد ولا يعزف عليه أبدا، بل ينقره برفق أنثى من حين لحين ويهمس «ها، ذبذبات طيبة، ها، ذبذبات طيبة».

في وسط المقهى طاولة مستديرة لـ«تشجيع الحوار» بين عوالم من هذا النوع. على هذه الطاولة بالذات، تجلس عجوز مشردة، بمعطف قذر وطويل وبلا أزرار، جيوبه محشوة بورق ممزق،



وأمامها دستة من أوراق «التاروت» (لعبة فرعونية الأصل لقراءة البخت كنت سمعت عنها لأول مرة في قصيدة «الأرض اليباب» لـ ت.س. إليوت)، وأنفها مدبب كإبرة وذكي، وماكر، كأنوف الساحرات.. لكن، لا يمكن لي ولا لأحد أن يفقه أية كلمة مما تقول إلا عندما يعطيها دولارين وتقرأ له البخت. وباستثناء هذه الحالة، لغتها حطام إشارات.

أعطيتها دولارين وقرأت لي بختي: «أنت في طريق بعيدة، وستكون طائرا حرا». حاولت جرها للكلام عن نفسها، وليس عني، فسألتها «أين أنت الآن؟»، كتبت كلمة واحدة طولها نصف صفحة تقريبا، كل حرف مربوط بالآخر ثم قالت: «أنا في المسار رقم ثلاثمائة». يا إلهي كيف تتحول اللغة إلى قواقع. هذه حلزون أحمر آخر في حطام من كلام، حلزون لا يراه أحد. لكل فرد هنا قاموسه الخاص. وهذا سبب «سوء التفاهم» الدائم بين زبائن المقهى.

فجأة، خطرت في بالي فكرة عبقرية: تأليف قاموس خاص بلغة بري. قاموس أحدد فيه معنى كل كلمة بالنسبة إليه، ومن دون هذا، لا يمكن أن أفهم عالمه أو يفهم عالمي، وسيبقى بيننا «السياج» الذي تكلم عنه ذلك اللوطي الألماني. مثلا، كلمة «أرنب» تعني عند بري «صديقا قديما دعاه لجزرة»، وعندي تعني أرنبين هنديين عند قارئة بخت شيعية، وعند «معالي الوزير» تعني أرنبا يسكن ليلا في رأس الجبل ويدحرج حجارة على بيت معاليه. ونتيجة لتعدد عوالم المعنى، لا يمكن لأحد أن يفهم أحدا، سوء فهم شامل، ويمكن أنني لا أفهم شيئا من كلام بري لأن معنى الكلمات عنده مختلف عن معناها عندي. فاللغة موهوبة في قدرتها على سوء التفاهم.

فكرت في «خلق قاموس» خاص بلغته، أحدد فيه معنى كل كلمة في عالمه هو. هذا مشروع أشبه بهذا العالم الأميركي الذي كان يعتقد بوجود لغة خاصة بالسعادين، فقبض على سعدان صغير وحاول أن يعلمه الإنجليزية لكي يخدم كمترجم بينه وبين بقية السعادين.

انتبهت على ما يحدث حولي حين بدأ أحد المغنين يغني، ويردد كل المشردين وراءه في جوقة واحدة، أغنية «لونغ ليف أميركا» (فلتعش أميركا طويلا). نظرت نحو الباب للخروج، فرأيت بري واقفا، ويبصق فتات لفافة التبغ عند الباب، ويبحث عني. التقت أعيننا فجاء مستفزا جدا، وقال: «يا رجل، جاءني طائرك الأزرق الليلة، أمنعه». لم أدر ما طائري الأزرق هذا، ولكني ارتجلت جوابا: «كان في قفصه». «أتقصد أنني أكذب يا رجل!». «لا، خرج من دون علمي، سأمنعه». «شكرا، سأقدر هذا» وخرج. سألتني سوزان عن «الطائر الأزرق» هذا، قلت لها «علمي علمك، ولا فكرة عندي». فرطت من الضحك.

بدأت في «تأليف» القاموس. جذبني حديثه عن «طائري الأزرق». ولكن ما معنى «أزرق» عنده؟ حاولت ربط الأزرق بالتعويذة التي يكررها: «بيور بري أوم أمني بدها أوم». ولكن عبثا.

وغرقت في أبحاث لا أول ولا آخر ولا نظام لها، حول النصوص الكونية المقدسة. مثلا، تعثرت بنص مقدس وجميل جدا، وحتى مذهل، للهنود الحمر يدعى «حلم الأيّل الأزرق»، في كتاب «نصوص مقدسة»، وهو كتاب طريف وضع فيه صاحبه «البيان الشيوعي» من جملة النصوص الدينية.. تذكرت أن بري قال شيئا عن «زعيم هندي أحمر»، معه بندقية كبيرة ويركب حصانا. «قلت له: كيف تزعم بأنك تمثل وعيا كونيا ما دمت زعيم قبيلة؟ صوب البندقية نحوي، فقفزت على ماسورتها وجلست هناك كعصفور صغير، وزقزقت له: لن تصيبني الرصاصة الآن، أجب عن سؤالي». ووصف وجه الزعيم بكلمات قليلة، وبدا لي أن الوصف نفسه ينطبق على أحد الزعماء الهنود في «حلم الأيّل الأزرق». وتعثرت بمجلدات بعنوان: «كتابات حكماء الشرق المقدسة» أو «نصوص الشرق المقدسة». وبكتاب غريب جدا، ومذهل، يدعى «قلادة الفهم الخالص»، كتبه راهب بوذي من التبت، وترجم إلى الإنجليزية باسم «الذهن في علم النفس البوذي»، وعرفت لاحقا أن بري يعرفه جيدا. ووجدتني من رواد مكتبات «الأسرار»، من نبوءات نوستراداموس، حتى الـ«أي تشينغ» («كتاب التغير» السحري في الصين القديمة)، ومن لاوتسو حتى «أعمدة الزن السبعة»، ومن الزن حتى رواية «طريق محارب مسالم» لدان ميلمان، ومنه لكاستينادا الذي يزعم البعض أنه لفق ما كتبه عن السحر عند الهنود الحمر، ومن هناك لـ«يوبيناشادات» (نصوص مقدسة في الهند).

كنت أكتب ملاحظاتي في دفتر صغير أحمله معي دائما. وبدأت بفك طلاسم لغة بري. مثلا، على هامش تعويذته المبهمة التي كان يكررها كما تكرر سوزان رسمة الطاووس: «بيور بري أوم، أومني بدها أوم» كتبت ما يلي:

١. بيور: كلمة إنجليزية تعني النقي، الطاهر.

٢. بري: اسمه، واسمه أصلا بالتركية «باريش»، وقام بتحويره إلى «بري»، وهي كلمة عربية مشتقة من «بريء»، أو من «باري» (أحد أسماء الله الحسنى). ويبدو أن سبب تغييره لاسمه هو اعتقاده بقدرة الاسم السحرية على التأثير على المسمى، سواء أكان حجرا أم بشرا، وبالتالي، فإن تغييره لاسمه يعني رغبته في تغيير هويته، التي تقع تحت السلطة السحرية للاسم الجديد. إن كان اسم «بري» مشتقا من «باري»، فإنه يتشبه بالله، كما ورد في الـ«تشبهات» الصوفية عند ابن طفيل في «حي بن يقظان»، ومثاله الأسمى أن يكون «حيا» و«يقظا»، و«نقيا»، وربما إلها.

٣. أومني بدها: يبدو أن لهاتين الكلمتين أصولا في السنسكريتية.. (لاحقا فهمت من بري نفسه أن معناهما عنده «الطاقة في كل مكان»).

٤. أوم: مقطع مقدس يردده رهبان التبت والهند، مثلا، ويبدو أن ترنيم حرف الميم في نهاية المقطع ترنيما لا متناهيا يجعل الميم رمزا للمطلق، كحرف الألف عند الشيخ محيي الدين بن عربي.

فالتعويذة صلاة سحرية، بكلمات شتى من لغات شتى وأزمنة شتى، تدل، ليس فقط على عقل موسوعي المعرفة، بل على هوية تشبه هوية مولانا جلال الدين رومي – هوية شخص ليس مسلما أو يهوديا أو مسيحيا أو عابد أصنام أو أي شيء آخر، لأنه «كل هؤلاء»، صلاة سحرية لله أو للكون أو للطاقة، من أجل بري نقي طاهر وبريء، فالطاقة في كل مكان، في حرف الميم، وفي بري، وفي النجوم، وفي الأسماء. هذا المخلوق ينحت حواف المجرات، وله «وعي مجرّي» أو «نجومي».

في ملاحظة أخرى عن حركاته، كتبت: «وضعه ليده في أسفل بطنه»: في حكمة الشرق الكون والجسم طاقات، وفي الجسم مسارات للطاقة (هي التي يستلهمها العلاج بـ«الإبر الصينية»). في مسارات الطاقة محطات أو مراكز كل منها يدعى «تشاكرا». المعدة مركز الإرادة، ويبدو أن بري كان «يرفع إراداته» بيده اليمنى. في القرآن الكريم، يوم القيامة، قد يمسك البعض كتابهم باليد اليمنى أو اليسرى، وبطن بري «كتابه».

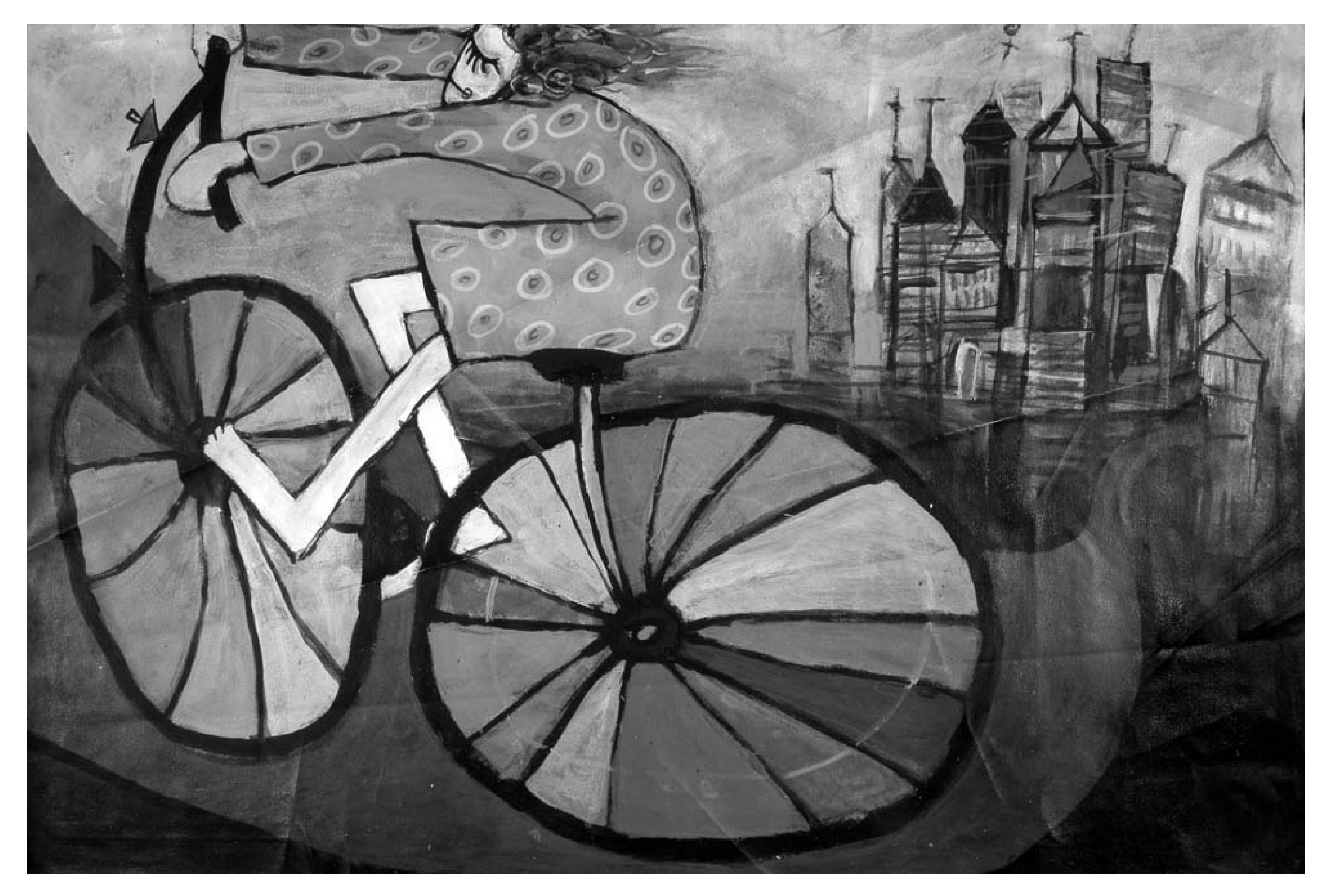
هذه أمثلة فقط من «قاموسي الصغير». وبناء على ما أعرفه أو أعتقد أنني أعرفه، رتبت جيدا لحيلة تشبه «حصان طروادة»، أو «الحرب عن طريق الخداع»، بها أخرج قلب بري عن حده، حتى يكلمني حلزونه الأحمر.

بعد لعبة شطرنج معه في «المخرج الأخير»، عندما أهزمه سيتخيل أن قوى خارجية ما، شياطين أو أشباحا أو آلهة، لا فرق، تدخلت في ذهنه، وحرمته من التركيز، وشوشت بصره، وسيضع يده اليمنى تحت بطنه في حركة سحرية بها يطرد تلك القوى، ويتمتم تعويذته. عندها بالضبط سأتدخل وأخرج قلبه عن حده، وليكن الطوفان.

استسنحت الفرصة فأتت، راقبته حتى خسر وراقبت تلونات وجهه، وعندما وضع يده اليمنى في أسفل بطنه، ورفعه، وكاد يبدأ التعويذة، قاطعت طقوسه قائلا «أعد الضوء الأزرق عاريا نحو بيته». كنت سمعت هذه الجملة منه، ومعناها متاهة تبدو التعويذة معها لعبة أطفال، ولم أكن أعرف أنا نفسي الكثير عنها، ولكن قدرت أنها تلمس أعماق روحه، وتوقظ قوى مجهولة فيه، وسرت فيه كالسم، وخرج عن حده فعلا.

أزاح بيده كل بيادق الشطرنج عن الرقعة، ولف لفافة تبغ بغضب، ثم استند للخلف، على مسند كرسي من الخشب وأطرق لمدة خلتها لن تنتهي أبدا. فجأة، انحنى نحوي حتى شعرت بأنفاسه على وجهي، وحملق في عيني وقال ضاغطا كل حرف: «يا رجل، لم أتكلم منذ خمس سنين مع أحد، وها أنت تكلمني، ما نواياك؟».

قلدت حركته، وقربت عينيّ أكثر وقلت ضاغطا كل حرف «اسمع يا رجل! أنا لست النبي موسى، ولا أطلب من الله أن يكلمني تكليما، لكن وصلت في الحياة إلى منطقة حرام، أمامي أسلاك شائكة وشفق ليس كأي شفق آخر، وأرض ممنوعة. أنا مرتعب من فقدان عقلي من الجنون. لا أستطيع العودة من حيث جئت، وعبور السياج قد يعني الجنون،



وأنت من سكان ما خلف السياج، ماذا هناك؟». بصق فتات التبغ وأطرق مرة أخرى ثم وضع يده اليمنى على الطاولة ونهض، وأحسست أنني لن ألتقي به أبدا بعدها. فجأة، قال: «أدعوك إلى بيتي، ستتعلم الليلة شيئا، أدعوك إلى بيتي».

كان الهواء باردا جارحا وطازجا حين خرجنا إلى شارع الجامعة. سواد الإسفلت كان مغسولا بالمطر وبرذاذ ضوء من مصابيح نيون على أعمدة من المعدن، وكل شيء يبدو طازجا، وبدا الإسفلت في نظري تلميحا لمرآة سوداء لامعة تضيق كلما ابتعدت، وكنت أرى وجهي في القنوات. بري كان يسير على سطح هذه المرآة الداكنة، مثل حصان. قال «أنا كتلة من الديناميت، وعندما تأتي نهاية حياتي الحالية سأنفجر، بوم! بوم! سأبعث الضوء الأزرق عاريا نحو بيته! عقلي ذهب نقي، ذهب نقي، كثيرون انتهوا في مستشفيات الأمراض العصبية، وأنا لا، لأنه من ذهب نقي، وأنا أشفى، أشفى، ستتعلم الليلة شيئا، عقلي ذهب». لفت نظري استخدامه لنفس الكلمة الواردة في التعويذة: «النقي». هنا يبدو أن «بري النقي» يعني عقلا من الذهب لا تشوبه شائبة. كنت أصغي بصمت، حريصا على أن أكون سميعا، لا ثرثارا، وأسأل لأعرف، لا لأجادل في أي شيء، كائنا ما كان. سألته:

«وما العقل؟»

«العقل؟ واو! مرعب يا رجل.. أنظر..»، وأشار بيده اليمنى إلى مصابيح النيون، ومرآة الإسفلت، وناطحات السحاب بقرب الميناء، بعيدا، وإلى (السوبر ماركتات) المغلقة، ومكتبة الجامعة، وقال: «هذا هو العقل».

شعرت بنفس سحري يسري في كل هذه «الأشياء»، في كل ما يدعى بـ«الأشياء». تذكرت هذا البروفيسور الأميركي الذي كان يقف في ساعات الليل المتأخرة أمام باب البناية التي يسكن فيها في رام الله، ويبدو مسحورا بشوارع خالية مضاءة بمصابيح صفراء. كان يراقب «العقل»، دون أن يدري.

كنت أعتقد أن «العقل» موجود في أنسجة الدماغ، في «داخلي»، فعثرت عليه في الشوارع ومصابيح النيون! شعرت بعظمة العقل، بطفحه. أدرت نظري في كل ما حولي بذهول، وأنا أردد بلا وعي مني: «هذا هو العقل!». سألته: «هل نحن في داخل العقل، كالنبي يونس في بطن الحوت؟». قال: «نحن فيه، وهو فينا. انظر إلى المخرج الأخير يا رجل: ما هو؟ مقهى؟».

قلت: «نعم مقهى، طاولات خشب، ومصابيح «كاز»، ولوحات على الجدران». «لا! لا! هذا المقهى كان حلما في خيال صاحبه! وبناه. والآن نحن نلعب الشطرنج في داخل حلم صاحب المقهى، في دهاليز حلم سابق. تخيل! توجد مجرة مضيئة ومنفصلة، وتدور حول محورها، وتسبح في داخل كل ذهن».

أشرت إلى ناطحات السحاب المضيئة في البعيد، قرب الميناء، إلى هذه الهندسة المجردة، الشاهقة، التي تقف كمعجزة باردة، لا مبالية، تحاول زيادة المسافة بينها وبين أقرب بناء مجاور إلى أقصى حد ممكن، فتتسلق السماء لتوحي بقوة البنوك والشركات المتعددة الجنسية، الصياغة الأسمى للروح البروتستانية، وسألته «ما رأيك فيمن يعتقد أن العقل لغز لا يراه أحد؟». قال: «لا تصدق مفاتيحهم!».

وصلنا زقاقا خلفيا فيه ظلال وصناديق قمامة. قال انتظرني هنا. ودخل في الزقاق واختفى تماما. وبقيت وحدي كالأبله لا أدري ماذا أفعل بأوامره أو بنفسي. عاد فسألته أين كان فقال: «لي معبد هنا». له معبد؟ في زقاق خلفي؟ قال: «أحول نفسي إلى ضمة ورد على بابها!». «من هي؟». «السيدة».

أقرب معنى لـ«السيدة» هذه أنها امرأة ما يحبها، ولكن، لاحقا، سأدرك أنه يقصد بها «القلب» سيقول لي في جملة من أجمل صياغاته عن الجنون: «العقل في خدمة السيدة». «وما هي السيدة؟». «القلب».

وصلنا أخيرا إلى بيت من النمط الأميركي: مدخل من درجات خشب مهترئة تفضي إلى باب زجاج. دخلنا صالونا مفروشا بموكيت أزرق قذر، فيه طاولة خشب ضخمة ومقاعد خلفها شباك واسع. على اليسار، مسنودا إلى الحائط، جيتار قديم، وعلى اليمين، باب مطبخ قربه درج ينزل من الطابق العلوي. دخل المطبخ وأشعل سخانا كهربائيا وأخذ يقلي بيضا في مقلاة فولاذ سوداء القعر. كان الزيت يغلي حين قال: «جاءني معلمي بالأمس وقعد لي في المقلاة، وقال إنه يريد العشاء معي. قلت له اخرج من المقلاة فلا بيض عندي لنا معا. قال لن أخرج، قلت له سأقليك، أقسم بالله سأقليك. ورفض. تخيل! قعد لي في المقلاة».

«وماذا فعلت بعدها؟»

«قليته!».

وفرط ضاحكا. شعرت في هذه اللحظة بأنني مع مجنون «رسمي». وعندما قعدنا حول الطاولة، شعرت أنني مع عبقري مجنون قال: «تلامذة كثر يدقون على بابي بأيد ماطرة كي أعلمهم، وأعلمهم ما هو التعليم، ولكن لا يفقهون كلامي. تجاربي معبدي، ومعبدي مقدس. وأدخلهم معبدي ولا يفقهون كلامي، فيستحيلون إلى علق على ستائره. ومعلمي كان بإمكانه أن يعلمني الغوص قبل أن يلقي بي في بحره. سأقتله إن جاءني، وقبضت عليه، سأقتله، أقسم بالله سأقتله. التسامح ليس من فضائلي، تخيل، بالأمس تعريت تماما، وكانت ملكة جمال الكون في سريري عارية، ولما هممت بها وهمت، جاء معلمي، وأزاحني يا رجل، أخذها مني، وضاجعها أمامي، ولا أي حس بالحياء لديه، أخذها».

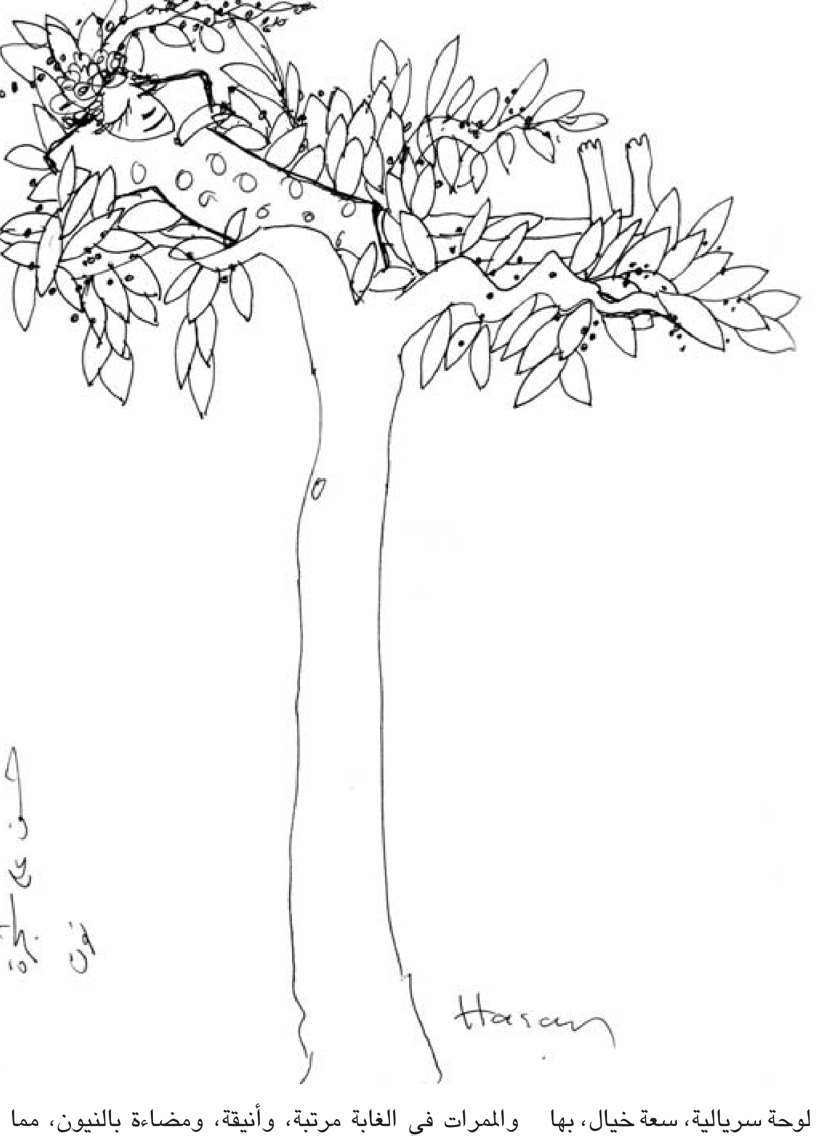
«ومن هو معلمك؟»

«صوفي من قونية»

«معذرة، ولكن لم أفهم. هل تقصد أنه جاء، حرفيا، وقعد لك في المقلاة، مثلا؟»

«لا! لا! لكل إنسان جسدان، جسد ذهني وآخر فيزيائي. جسد معلمي الفيزيائي يقيم الآن في

قونية في تركيا، ويزورني جسمه الذهني، صورته تأتي من قونية إلى سياتل، لهذا «أتذكره»، إنه يتنكر ويبعث روحه إليّ. هل مات لك أحد؟»
«أبي وأخي الصغير، دفنوا الأخير في كهف، فلسطين بلد كهوف»
«هل حلمت بأبيك بعد موته؟»
«مرات»
«هذا هو جسده الذهني الذي يترك قبره ويزورك»
«ولماذا يعود؟»
«واو! هذه قصة. ولكن إن زارك وجه، تأمل ملامحه، واسبر نواياه»
«قلت لي زارك طائري الأزرق في الليل..»
«نعم، روحك جاءتني»
«ولماذا تنكرت في هيئة طائر أزرق؟»
«هذا غيب لن أحدثك عنه، ولكني تأملتها، وفهمت نواياها، ولماذا جاءت. اسبر نوايا زائريك يا حسين!».
فجأة، انتبهت لعملاق نحيف جدا ينزل على الدرج الداخلي من الطابق العلوي. كتلة عظام، بوجه أصفر مشدود كجلد الطبول، وعيناه تحملقان معلقتين في مسار أفقي، في الفراغ، عيناه واسعتان بشكل جنوني، ولكن بغير بريق أو حيوية أو حركة، بل بانطفاء.
كان ينزل ببطء شديد، ويمشي بثبات نحو الصالون، ثم اتجه إلى الباب، وكأنه يعرف أين يتجه. حدق فيه بري لحظة ثم أخذ يلف لفافة تبغ، ويبصق فتاتها، ويقول: «يا رجل، عالم دوستويفسكي حقيقي، هذه حالة تزورها أجسام ذهنية كثيرة».
«وكيف يرى؟»
«بعين ثالثة».



شرد ذهني إلى ثقافة الموتى عندنا في فلسطين. قلت له: «كثيرون في فلسطين ماتوا شنقا أو ذبحا أو سما أو برصاص أو قصف أو بطرق أخرى، ومن ظل منا حيا، تزوره الأجسام الذهنية لموتاه، وتشاركه في عشائه، وتقعد له في المقلاة. أنا يزورني شبح أبي، وأخي، وصديق استحم قبل سنين وتعطر ومشط شعره، ليلا، وفي الصباح ذهب إلى مظاهرة ضد الاحتلال الإسرائيلي وقتل. ارتعبت، ليس من موته، بل من كونه كان يحضر نفسه للموت. تزورني أرواحهم، وقد صارت عظامهم مكاحل، في بلد يسيطر فيه الموتى على الأحياء، والماضي على المستقبل. هذه هي «سلطة الذاكرة». وفي منطقة عميقة يقاس تاريخها، ليس بقرون، بل بألفيات، الذاكرة خطرة جدا، معمل أشباح. أولم تهدد الإلهة عشتار في «ملحمة جلجامش»، قبل عدة ألفيات، بـ«فتح بوابات العالم السفلي»، وتجعل الموتى يتناولون عشاءهم مع الأحياء؟ لا نستطيع العيش بذاكرة عميقة كهذه، ولا من دون ذاكرة أيضا، ما الحل؟»
«افتح عينك الثالثة»
«كيف؟»
«في التبت، يفتحونها بعملية جراحية». وضحك عاليا، ربما سخرية من سؤالي. وبدا لي أنه يلمح إلى كتاب «قلادة الفهم الخالص».
انفتح باب الخروج الزجاجي ودخل عدد من المراهقين والمراهقات. فالبيت الذي يسكن فيه بري «سكن جماعي»، على النمط الأميركي: في الطابق العلوي غرف نوم، ولكل مستأجر غرفته، ولكن الحمامات والصالون والمطبخ مشاع للجميع. لم أدر من هؤلاء المراهقون، ولماذا جاؤوا. وبري بدا وكأنه يعرف، ولكن لم يكلموه ولم يكلمهم أبدا.
كانوا ستة أو سبعة، يشربون البيرة، ويتصايحون، ولكل فرد منهم تقليعة خاصة في تصفيف الشعر، من تقليعات حركة «البنكس»: نصف الشعر حليق، والنصف الآخر مصبوغ بلون ناري وأزرق، أو كل الرأس بلا شعر ما عدا خط يشبه «عرف الديك» مصبوغ بألوان فاقعة، برتقالية أو صفراء وبنفسجية، وهكذا.. لوحة سريالية، سعة خيال، بها يحاول كل فرد أن يكون «مختلفا» عن غيره، ومن المفارقة أنهم يتشابهون جدا في سعيهم للاختلاف، وفي مظهرهم، وسلوكهم، وحتى طريقة كلامهم. قالت لي سوزان، عندما تعرفت عليها لأول مرة، «أهلا بك في نظرية الرقم واحد». «وما هي نظرية الرقم واحد؟». ضحكت وقالت: «أولا أنا وثانيا أنا وثالثا أنا، وعاشرا أنا، إلى ما لا نهاية».
بينهم مراهقة ذات وجه طفولي تحاول أن تبدو ناضجة، وتشبه مدينة سياتل نفسها التي تحاول أن تبدو مدينة كبرى كنيويورك، ولما سألت كاتبا مسرحيا من نيويورك عن رأيه في سياتل قال: «نيويورك امرأة، سياتل بنت». وخطر في بالي أنه لا توجد في فلسطين مدن عربية تستحق اسمها، والنتيجة أنه لا توجد عندنا نساء بل بنات، ولا يوجد رجال بل أولاد. في قرانا ومدننا، الناس متشابهون إلى حد الكابوس. هنا كل فرد عالم. كانت تلك المراهقة تلبس لباس «باليه» أسود مشدودا على مفاتن جسمها، وأخذت تتلوى بإغراء، ثم نامت على الموكيت الأزرق القذر وأخذت تتدحرج وتتلوى وتتنهد. وهنا حدث مشهد لا ينسى، ولا سينما العالم كله تلتقط لقطة بهذه الغرابة والإيحاء: كان العملاق قد وصل إلى هذه المراهقة التي لم تزل تتلوى على الموكيت: رفع رجله ببطء شديد، شاخصا لم يزل في عالم آخر، وتجاوزها، وواصل سيره من فوقها، وواصلت التلوي، لا هو انتبه، ولا هي استغربت. تذكرت فتاة منفصمة الشخصية قالت لي عن الولايات المتحدة: «هنا، تستطيع أن تذهب إلى جهنم، ولكن وحدك، وتذهب فعلا، ولا أحد يهتم». بري وأنا كنا فقط نراقب. قال: «أحب هذه الثقافة الأميركية يا رجل. لكنها أكثر ثقافة وحيدة في العالم، الأميركان يرتعبون من الوحدة».
كنت متوترا، منهكا، مخنوقا من شدة التدخين وشرب القهوة الأميركية التي تجعل نبضات القلب تشبه شاشة تلفزيون مشوشة بلا أي انتظام في دفقات إلكتروناتها. قلت إنني سأخرج للتسكع في الغابة حول الجامعة، وقد أعود غدا في الليل.
والممرات في الغابة مرتبة، وأنيقة، ومضاءة بالنيون، مما يحول الشجر إلى كتل ظلال داكنة مرشوش عليها بياض شبحي. لعل كوني تربيت في جبال مكشوفة، جافة، وصخرية، ولا شيء إلا زرقة السماء الملتهبة، ومدرجات من جنائن زيتون وشجر قصير، خلق في روحي فراغا جافا ومفتوحا وجبليا. لم أر الصحراء أبدا في الطفولة، ولكن «ذاكرة الفراغ الصحراوي» سكنتني عبر الشعر: البحر والصحراء والجمال والخيام والنخل والواحات أساس في هذه الذاكرة، أعني الشعر العربي. «زرقة بحر على حد صفرة رمل»، فراغ رملي وفراغ أزرق. كل هذا يجعلني أشعر بالضيق من غابة تحاصر الجلد، وتغلق المكان حولي، وتخفي مجرما بسكين أو جثة تحت الورق المبتل، مما يحول الإنسان إلى حارس سري على نفسه ولا يعرف إلا اليقظة العسكرية. والمطر شبه الدائم، والخضرة المملة الأقرب إلى جحيم خضراء منها إلى الخصب، تشعر جلدي المتعود على الشمس والجفاف بالغربة. عندما أدخل العرب أول نخلة إلى أوروبا، في الأندلس، سموها «الغريبة». كنت نخلة غريبة.
في تسكعي، عثرت على بقعة معينة في الغابة صرت أعبدها: أجلس فيها على درجات من الطوب الأحمر الناري تفضي إلى باب مغلق، وأمامي شجر متباعد، وحين يشع القمر، أو تكون السماء صافية، أرى فضاءات تتكاثر بين الفروع المتباعدة، وكأن الفروع نفسها خطوط سوداء في لوحة. تذكرت قول خليل جبران إن الشجر شعر تكتبه الأرض على صفحة السماء، ونقطع الشجر ونحوله إلى ورق كي نسجل عليه فراغنا. كنت أشرد لساعات هناك. وتأتي موسيقى بيانو من شباك مضيء بعيد، وغناء فتاة جميلة الصوت تتدرب على الغناء الأوبرالي، وبعدها يحل صمت. يا إلهي كم كنت أحب الصمت عندها.
ذهبت إلى هذه البقعة. واستعدت بعضا من حديثي مع ذلك الصوفي. قلت له «الله الآن قوة صامتة، منذ نزول القرآن لم ينزل الوحي على أحد». «سأكتب كتابا عن قوة الصمت».

قال الصوفي. «لكن رأسي وحده لا يهدأ، وأفكر أفكر أفكر».
«ذهنك يشبه سعدانا ينطنط فوق أصابع بيانو»، قال الصوفي: فقط الإنهاك من المشي المستمر يقود إلى صمت ذهني، نعم، الإنهاك المستمر الذي يقعدني على هذا الدرج. «ما أتعس ذهنا لا يصغي لما هو خارجه، ولا يهدأ، ويشتبك مع نفسه».
«الذهن عقرب قادرة على لدغ نفسها»، قال الصوفي، «لقد نهشوا عقلك يا رجل، نهشوه، مثل شاة معلقة على فرع شجرة كي تشبع قطيع ذئاب. صار كالكرة التي يتدربون عليها في الملاكمة!». سألته: «من هم؟». قال «هم، من يسكنون في ذهنك، خبراء النهش».
لو يصمت البحر الذهني ويتعلم من صمت الله.
كنت أريد أنثى، أنثى بأي ثمن، في جو أشعر فيه أنني ضفدع. فجأة، خطر في بالي أن بري نفسه لا يختلف عن كنيسة الديانتيك، أو أي داعية لأي حزب أو وطن أو طبقة أو طائفة أو عشيرة أو مذهب: يريد السيطرة على عقلي. وقد يكون رجل مخابرات حتى.
ووجدتني أتجه إلى بيته، مستفزا. وجدته نائما على ظهره فوق الموكيت الأزرق في الطابق السفلي، ويداه تحت رأسه، ويحدق في السقف. «أهلا، حسين، جئت؟». «جئت طبعا، أنت تحاول السيطرة على عقلي يا رجل!». قعد وقال: «من امتيازات العقل الأعلى أن يسيطر على العقل الأدنى.
إن لم يكن عقلك دونيا، لا يجب أن تخشى من السيطرة، وإن كان أدنى مني، فمن امتيازاتي السيطرة عليه، وتستطيع أن ترحل»
«لا! سأبقى، سيطر إن استطعت».
كنت في حالة من الغليان، نهض نحو المطبخ.
«أتشرب الشاي؟»
«لماذا؟ أتحتفل قبل الأوان بالهيمنة على عقل أدنى منك كما تعتقد؟»
«لا تقل لي ماذا أعتقد. لكن والت ويتمان قال إن خير تلامذتي من يتعلم من تعاليمي قتل معلميه. علمتك جيدا، فتحديتني. لا بأس! اشرب الشاي، ربما أنني أحتفل الآن بموتي أو بالهيمنة على عقلك. اشرب!».
يا إلهي! لم أر أوقح من هذا. حملت كأس الشاي وصعدت الطابق العلوي، ولحق بي، أردت أن أرى غرفته. أنا خبير في قراءة نفسية الشخص من أثاثه وطريقة ترتيبه للأثاث. سأرى أثاثه. سبقني وفتح الباب، وأدخلني. أول ما صدمني طاولة صغيرة عليها لوحة من كرتون فيها انفجار أخضر حاد، بخطوط وتموجات أشبه ما تكون بجنون فان كوخ، ولكنها أصيلة، وهذا البركان يخرج من مربع صغير بالأسود والأبيض، يبدو وكأنه يطفو في الموج. اقتربت منه وذهلت: وجه بري نفسه، مقصوص من صورة كاميرا، وعيناه محملقتان في كتل اللون المجنونة التي ترتفع كالموج حوله. على يمين اللوحة سرير بهيكل معدني عليه فراش ما. باقي الغرفة فارغ، ولا شيء، زوايا نظيفة. رجعت إلى اللوحة، شيء ضربني في معدتي منها، حزن فوق إنساني. نزلت ثانية إلى الصالون، وكنت أغالب رغبتي في البكاء، وأشعر باختناق في الصدر. سألني لماذا صعدت إلى الغرفة، قلت إنني تربيت في الطفولة مع أمي أساسا، أبي كان عاملا مهاجرا في بيروت، يأتي أحيانا ونذهب إليه أحيانا، وبقي غريبا عني إلى حد. وأمي لم تكن تعترض طريقي، أتجول في الجبال كيف أشاء، وأفعل ما أشاء، ولم أزل أعتبر بيوت الناس مشاعا كالجبال. ضحك وقال: «يا رجل، لم يخمدوا عندك حب الاستطلاع! بقيت فيك غريزة القردة». «أولست قردا؟». «أنا؟ لا! هل تدري لماذا؟ لأنني أتطور يا رجل، في كل ليلة عندي جديد. بالكاد أعرف من أصير».
وذهبنا في الليل لنشرب القهوة في «فندق الجامعة» في ساعة متأخرة، ولا أحد في الحانة. وكنت أراقب، عبر جدار زجاجي واسع، المطر الخفيف الدائم في الشارع. قال بري إنني لا أتلذذ بالقهوة بل أعبها عبا. وحدق في لوحة على الحائط المقابل، فوق البار، لوحة رخيصة جدا وسبق ورأيتها. قال: «ما هذه؟». «لوحة رخيصة». «لم أسأل عن قيمتها بل عما هي». «عن رجل عجوز يشرب القهوة». أجبته دون أن أكلف نفسي بالمعاناة مرة أخرى من رؤيتها.
«حسين، انظر إليها». ونهض نحوها، ووضع إصبعه على بقعة فيها وقال «هذه حافة فنجان عليها خط أخضر، وهذا فنجان له شكل قبعة، وهذا حذاء قديم». كان يضع إصبعه فوق كل شيء وكأنني تلميذ غبي في الصف الأول. «هل لاحظت لذة العجوز في شرب القهوة؟». «لا!». «وهل لاحظت أن لون القبعة أسود كالقهوة؟». «لا!». «لأنك أعمى يا رجل! لا توجد رؤيا بغير معرفة التفاصيل!». «لوحة رخيصة ولا أحتاج تفاصيلها!».
رجع نحوي غاضبا، وقال: «اسمع، عندك الليلة وظيفة مدرسية: ادخل الحمام وافتح «الدوش» حتى آخره، وراقب الماء حتى الصباح، أتسمع، حتى يطلع الصبح».
خرجت غاضبا، ولم أجب. ولكن وجدتني بلا إرادة مني أفعل ما قاله. جلست على حافة البانيو الباردة، وفتحت «الدوش»، والحنفيات كلها، وحدقت في المياه تسيل حتى الصباح. شعرت بفرق هائل بين عقلي وبين تدفق الماء: عقلي صلب، وواقف، ثابت مثل الجبال التي تربيت فيها، والماء يتدفق ويهدر ويتشكل، وشعرت ببرد في جلدي، كنت أرتجف. تناولت ورقة وكتبت قصيدة تدفقت مني كالماء. طرت فرحا، وخرجت راكضا إلى المخرج الأخير والورقة في يدي. كان المقهى مغلقا فانتظرت حتى فتح، وجاء بري كعادته. طلب مني دولارين لشرب القهوة، وقرأت عليه القصيدة، فتناول الورقة مستفزا، ولم أره غاضبا وراء أي حد قبل هذا.. «يا رجل! قلت لك راقب الماء، فكتبت قصيدة عنه! ألا ترى شيئا إلا لكي تكتبه! إلى جهنم بالشعر، راقب الماء».
ومزق الورقة ونثرها فوق رأسي. جن جنوني، فقبضت على عنق معطفه، وصرخت لا تتجرأ مرة أخرى على مس قصاصة ورق كتبتها أنا. كدت ألطمه. «يا رجل، الأنا عندك أكبر من مدينة سياتل!» قال. وبدأ بلف لفافة تبغ جديدة بهدوء ثم أكمل، لما هدأت قليلا، «راقب الماء كي تفهم شيئا لم يفهمه أحد حتى الآن يدعى «التغير»، راقب الماء لتفهم الجنون». صدمتني الجملة، ولم أجب. جمعت القصاصات معا مرة أخرى وقرأت القصيدة ثانية. راقبني بحب فاجأني، وقال: «حسين، هات الورقة». تناولها مني وقرأها ثانية، وفي يده قلم رصاص، ثم قال: «هذه قمامة من الانطباعات، فيها جملة واحدة فقط مفيدة» (رسم تحتها خطا بقلم الرصاص): «كن شلالا، وكن سمكة». لكن هل تفهم معنى ما قلته؟ ما معنى «كن سمكة»؟ «فكرت، لكن لم أجد جوابا». رسم سمكة بفم مفتوح على الورقة، وقال: «هذه سمكة، كن سمكة، نقطة». ولم أفهم لا ما قال ولا ما قلت.
في الليل، رجعت لمراقبة الماء، ونسيت الشعر. كم كنت منهكا، ولم أنم لأيام، والله أعلم كم مرت أفكار في ذهني وأنا أحدق في الماء، وأرجف من الرذاذ. غفوت دون أن أدري على حافة البانيو. وغريب جدا أنني حلمت أنني سمكة في قعر بحر. فوقي سقف شفاف سائل فيه صبغة خضراء، وفمي ينفتح وينغلق ويلتقط فتات البحر، ورفوف سمك ملون تعبر بالاتجاه المعاكس، وأنا أسبح، أسبح، أسبح، مررت على مدينة نحاس غارقة كنت قرأت عنها في «ألف ليلة وليلة»، وعن أخطبوط واقف يحدق فيّ في باب كهف، وبيت من حجر بدا شبه بيتنا في الطفولة، وأنا أسبح، أسبح، أسبح، من عالم لآخر. جادلت بري في اليوم التالي عن معنى الحلم.
قال «هل تسمي السمكة سمكة إن كانت تسبح في البحر فقط، ولا تسبح في كأس أو بانيو؟»
«لا».
«وإن كانت تسبح في بركة فقط ولا تسبح في البحر، أتسمى سمكة؟»
«لا»
«لماذا؟»
«لأن من طبيعة السمكة أن تسبح في كل ماء»
«هذا هو الفهم: سمكتك الذهبية، من طبيعتها أن تسبح في كل نظرية، كل تجربة، كل رأي، كل نوع من المعرفة، كل ماء، وتبقى هي هي: سمكة ذهبية. إن من طبيعة الذهن أن يفهم نفسه، كما أن من طبيعة السمكة أن تسبح»
«وأين يسبح العقل؟»
«في نفسه: إنه الشلال والسمكة التي تسبح في الشلال. هل فهمت معنى قولك كن شلالا وكن سمكة؟»
«فهمت»
«ولم لم تفهم هذا سابقا؟»
«لا أدري»
«لأنك لا تتأمل الكون»
«وما هو التأمل؟»
«أن تتأمل نفسك يعني أن تفهم ما كنت تعرفه دائما من غير أن تفهمه. دائما كان قلبك يعرف معنى كن سمكة وكن شلالا، حتى قبل أن تكتب الجملة كنت تعرفها، ولكن دون أن تفهم ما تعرفه»
«بري، دعني أسأل عن شيء حاسم بالنسبة إلي: تدري، أنا مرتعب من الجنون، من فقدان عقلي.. ما المخرج؟»
«لا تتعجل».
تناول قلم الرصاص وكتب على ظهر القصيدة:
«الحياة لعبة شطرنج ذهنك فيها الرقعة، والحجارة، واللاعبون، واللعبة، والقاعدة فافهم، وإلا، فإنك أبله في تمام الساعة الواحدة».



الفصل الثاني

غريبٌ كم يبدو المكان كمصيدة، أحياناً، وكم تبدو المصيدة متاهة، أحياناً. التقيت به ذلك الصوفي من قونية في شتاء ١٩٨٦، وكان بحراً، وكنت أعتقد بأن له قاعاً، ولكن لا قاع هناك، بل مياه تنزل، مهما كانت صافية، في أغوار لم يسبرها غير خالقه. ولعل أدق تعبير عنه ما قالته سوزان لي في سينماتك «الوهم العظيم»: «بري؟ كائن مثل الـ«كينغ كونغ»، أكبر من الحياة!». طاقته مرعبة: مرة تكلم من الثانية بعد الظهر حتى السادسة صباحاً. ومرّت عليّ ليال متوالية معه بلا نوم أبداً، أكثر «ليالي الإقلاق» في حياتي توتراً، كدت أنهار، وشعرت بشبه دوار من القهوة الأميركية، والتدخين، والتركيز. وعند نقطة خفية ما، لم أعد أحتمل، قلت: «سأذهب إلى بيتي، فلم أنم من قرنين».

كان يلف بأصابعه لفافة تبغ من نوع «عثمان»، توقف باستغراب، وقال بلذة تشبه رقصات الإله ديونيسيوس وهو يعبر أودية الربيع والينابيع البرية والشمس، وتتبعه نساء عرايا يرقصن وقد فقدن رشدهن من السكر: «نحن من الخالدين يا رجل، ولم تحدثني عنك بعد!»، وكأنه يؤنبني على فكرة النوم نفسها كفكرة فانية. فرحت لأنه شملني بقوله «نحن»، أي أننا من عالم متفوق واحد، ولأنه طلب مني أن أحدّثه عن نفسي حديث رجل خالد مع رجل خالد آخر، انتفخ صدري من الزهو، فنظر إليّ بيأس، وقال: «لا أحب حفلات تهنئة النفس، يا رجل!». كنت أنتفخ من «المديح»، وأنكمش من «الهجاء»، دائماً، وصدمني. فخرجت للتسكع في الغابة الصغيرة المحيطة بالحرم الجامعي.

قعدت على حافة دائرية لبركة فيها مياه داكنة وقذرة تطفو عليها أوراق الشجر وأضواء النيون، ويسبح فيها البط بهدوء؛ بركة حول نافورة خامدة من عمود معدني واحد. كنت منهكاً، وانهمكت في مراقبة البطّ، وفجأة، وأنا في كامل الوعي، رأيت رؤيا مذهلة وغريبة:

نجوماً صغيرة، مضيئة بنور يبدو وكأنه يأتي منها، لا من خارج، ذات سطوح بركانية سوداء تتخللها تجويفات صغيرة، سبعة نجوم أو ستة، في أعلى الكون، في صباح غامض يشبه وعداً لم يولد بعد، فيه خضرة شفافة، وفوقه عتمة سوداء لامعة كمرآة، والنجوم مغسولة قبل قليل بماء ساخن وصابون، وبدت قريبة، طازجة، ونظيفة، يتصاعد منها بخار ساخن، وبدا لي أن جسمي هو تلك العتمة العليا التي تتأمل الكون تحتها، حين لم تكن هناك، بعد، أرض ولا سماء. هززت رأسي مرتين، ولكن عبثاً، بقيت الرؤيا معلقة في عينيّ.

وباغتتني رؤيا أخرى، بعدها كان مقدّراً لها أن ترافقني لسنوات: سماء عالية تشبه لوحة مدهونة بزرقة فاتحة، تميل هنا وهناك لبياض كالح، وقد تشقق الدهان من قدمه، ورأيتني تحتها نسراً رمادياً يحلّق عالياً، ويطير مائلاً، بسرعة فائقة، ويرى أرض ذاكرتي كلّها، مناخها، تضاريسها، ومن بدايتها، وفقط ينظر، بحياد لا عهد لي به، ولا اسم له عندي، وبدا وكأنه لا يتدخل في شيء، بل يرى، فقط يرى ويفهم، ويمر. ورآني هنا، على حافة النافورة، فوقف قليلاً في الزرقة، ونظرت إلى الأعلى، والتقت أعيننا، وبدا وكأنه يتأملني بصمت ثم واصل طيرانه نحو ما لم أكنه بعد..

حيّرتني هذه الرؤى، وحيّرني بري نفسه أكثر منها. ومن لم يغيّرني بعمق، لم يحيّرني بصدق. على كل، في تلك الليلة، رجعت إلى بيته، وحدثته عن.. عن ماذا؟

عن بعض مما رأى النسر؟

.. وأنا طفل في الجبال، كنت أحب أن أرعى بغلتنا التي كان أبي لقبها بـ«أم إسكندر»، ويتبعني حيث أذهب كلب عمي، وأرتاح في فيء الزيتون، وقدماي في برودة التراب، وأحدق غرباً، في البعيد، نحو البحر الأبيض المتوسط. لكنني لم أر البحر عن قرب أبداً، فقد احتلت إسرائيل السهل الساحلي كله قبل ولادتي، وسرقت مسالك الجبل إلى البحر.

عزّ الظهيرة، صمت بري عميق، أزيز صراصير، والفيء، وجنائن الزيتون، في جبال تتكوّر سفوحها بنعومة أنثى، وتنبسط قممها انبساط الحلمات.. هذا هو تكوين ذاكرتي، طقسها الأسمى، وتضاريسها. صيفاً من الوادي، لا أرى إلا زرقة عالية، وصخوراً، وشجراً قصيراً أميل للرمادية والبياض منه للغابات، ولا أفق أبعد.

ولما رأيت البحر لأول مرة في بيروت، جلست بعيداً عنه، على مسافة، مغموراً بالهدير، وبالرائحة الرطبة، وضباب أزرق، ودهشة زبدية بيضاء، وأحببت أمشي على الزبد، أمشي، وأمشي، حتى لا أرى إلا ظهر الموج يعلو ويهبط قادماً مما وراء الأفق. في الموج أنوثة الجبال، ولكن الجبال ثابتة، أساس وعيها ثباتها، والله في قرآنه الكريم قال: «وجعلنا الجبال أوتادا»، والأوتاد مثلثات، أما الموج، فهيئات لا حصر لها. والأهم اللون: في الجبال لا زرقة إلا في السماء، وفي شبابيك البيوت القديمة المرشوقة بالكلس الأبيض الممزوج بـ«النيلة» (صبغة فاتحة الزرقة)، وفي بعض الزهور هنا هناك، وكانت أمي تغسل ملابسي بالنيلة، أيضاً، فأبدو بحرياً. كنت ذاكرة اليابسة أمام مسافات مفتوحة، والبحر كان يعيد صياغة ذاكرتي.

ما زلت أذكر وجه أمي واقفة فوق صخور «الحمام العسكري»، مساء، لما رأيت البحر للمرة الثانية. كانت تلبس خماراً أسود كعادة نساء قبيلتنا أيامها، ولم أرَ إلا قناعاً خفيفاً يضغطه الهواء على ملامح تمثال. ورفعته، فكشفت أنثى الجبل هذه للبحر وجها بدائياً، داكناً، بأخاديد غامضة وعميقة، وفم مطبق بقوة على ما فيه، والهواء يلعب بأطراف الخمار، والبحر أميل للسواد ، والهدير يعلو ويهبط ثم يعود بقوة أكبر.

كشفتْ للبحر وجها آخر، فكشف لها وجها آخر: رعبها الحيواني من الموت غرقاً. كدت أغرق ليلتها، وسحبتني هي منه. لم أر قوة موت بهذا الشكل من قبل، ولا شممت رائحة كرائحته، ولا سمعت هديراً أسود كهديره، ولا قلقاً يشبه هذا. وبدت لي زرقته المشمسة الأولى، زبده، ومساحاته، وضبابه، خماراً لغرائز موت بدائية. أوليس البحر إشارة لفصام شخصية كل ما هو جميل في هذه الدنيا؟ فصام صاغته العرب كلها في كلمة واحدة: «رائع»: كل ما يلقي الرعب في الروح، ويرتجف القلب منه، ويتزعزع به، وما يلامس الجمال المطلق، أيضاً؟

وصار البحر يطاردني في أحلامي، لسنين، ولكن لم يتوحّد طفل الجبل بالبحر، لم يصيرا واحداً، كان يستيقظ من حلمه وهو يرشح عرقاً مالحاً، وكأن البحر يرشح منه، من جسده، من إبريق فخار يدعى «جسده». لم أر البحر الأبيض إلا وحدث لي شيء يشبه هذا، به مس من جنون. حتى عندما رأيته من «فوق»، وأنا طفل لم يبلغ الرابعة بعد، مسّني جنون ما.

ففي أواخر خمسينيات القرن الماضي، تدخلت قوات المارينز الأميركية في الحرب الأهلية في لبنان، ورحلونا أنا وأمي وأبي من بيروت، على ظهر طائرة كـ«رعايا أجانب»، نظرت من شباك الطائرة «تحت»، فرأيت أبنية حمراء، وبيضاء، وصغيرة، تشبه قطع «ليغو»، بينها شوارع سوداء ملتوية تتراكض عليها سيارات صغيرة وملونة، وأحببتها. وتخيلت بيروت «مدينة أطفال». وأردت أن أنزل فيها وألعب.. حولها ظل أزرق، لا اسم له عندي، ساكن، وشاسع، ولم أدر ما هو: كان البحر. هذا هو أول ذاكرتي، أولها المطلق، قعرها، قبله لا أذكر شيئا.

مسّني عشق لمدينة أطفال سرية، لم يحدثني أحد عنها، ولم أحدث أحداً، كتمتها بيني وبيني، وأحببتها، وكنت أبحث عنها في الجبال، موجودة، ورأيتها، أنا متأكد، ولكن أين؟ كنت أسحب بغلتنا ويتبعني حيث أذهب كلب عمي، وأبحث عنها. لم أجدها في فيء الزيتون، ولا بين الأودية، ولم أرها حين كنت أحدق غرباً نحو البحر. كنت أركب «الباص» من قريتنا لرام الله، وأجلس في جهته اليمنى، وأراقب مسالك الجبال كيلا يفوتني شيء، وأبحث عنها، وكنت أرجع فيه وأجلس في الجهة اليسرى، وأبحث عنها، ولم أجدها، حتى في «إبريل، أقسى شهور السنة، حين تمتزج الذكريات بالرغبات».

بعد خمسة عشر عاماً كاملة، أدركت أنني كنت أطارد وهماً بحرياً آخر. كنت أيامها طالباً في جامعة الاقتصاد في بودابست، وأسكن على ضفة نهر الدانوب، وأستمع لموسيقى كلاسيكية أوروبية، وأتخيل نفسي في جبال الطفولة: كانت زرقاء غامقة، وكنت أراني في قعر واد هناك، وجسمي كتلة من هلام أشبه بجنين أزرق يحاول أن يولد، ويتحرك، وينبض كلّه كقلب كبير، وله صوت، ولكنه يبقى هو هو: هلاماً في جبال زرقاء، وبدا وكأن هناك «زحفاً أزرق» في روحي، إضاءات تشبه ظلال البحر.

أيامها، سمعت بموسيقى «الدانوب الأزرق»، أيضاً. ولكن لم أعد أحلم لا بمدينة الأطفال ولا ببحر يطاردني. في المطاردة حركة، طاقة، حيوية، غضب، حرية، دراما، هوج، جنون. ولما هدأ البحر، غرق كل هذا الغضب مثل كرة من اللهب في الماء، وأين ذهب هذا الوحش الأزرق العجوز، فاقد الحيوية هذا، سياق الرماد وسيادته الأشمل؟ اختفى في «معدتي»، على ما أعتقد،

وفي عضلات جسمي، وصار «طاقة وضع»، وبدأت أتحول إلى صحراء بيضاء من ملح يلمع في الظهيرة مثل مرايا السراب.
واشتدت بي رؤى الجنون، كنت أتخيلني في مدينة فارغة تماماً من أي إنسان، مدينة من نحاس أحمر، كنت قرأت عنها في «ألف ليلة وليلة»، بأرصفة من نحاس، ودكاكين من نحاس، وشجر من نحاس، وأحياناً، في الليل، أتجول فيها والأضواء خضراء، خضراء جداً، وحيث نظرت مرايا، مرايا، مرايا، وما من أحد.
تجولت حول ضواحي الجنون وعاشرت سكان هذا البلد، وأتسكع في الضوء الأخضر، وأرى «حول الزوايا» تماثيل نساء عاريات من جبس له لون أصفر متسخ. تماثيل تحدق فيّ، وتطاردني نظراتها. لم أكن «أحلم» بها، كنت أراها في ذهني في اليقظة، محض خيال فقط، ولكنها تسكن أغواري.
أو كنت أحلمني مسجوناً في برج زجاج دائري مغلق، على قمة جبل يطل على جبال من غابات خضراء مشمسة، فجأة، تطلق يد خفيّة رصاصة في رأسي، ويتبعها طنين خفيف، وأهوي، ويتكسر البرج، منفجرا نحو الخارج، وببطء، كتصوير بطيء في السينما، ويهوي، وأنا أنظر نحو الغابات والشمس وأهوي معه وفيه. وكنت أرى مصابيح ملونة، خضراء وصفراء وزرقاء، مدفونة تحت التراب الذي أمشي عليه. ولكن لم أكن خائفاً من الجنون، ولم يخطر ببالي أنني سأجن، وربما أن هذا دليل جنون.
كان عقلي قد اتسع وراء أي حد يمكن أن يكون «معقولا». في فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات، كنت قد تعلمت كثيراً جداً في حقول متباعدة جداً: الفلسفة، وعلم النفس، والاقتصاد السياسي، والأدب، والتاريخ، والأساطير، والرياضيات العليا، والفن المعماري، والنقد الأدبي، والسياسة، ومالية الدولة، والموسيقى..
رجعت لزيارة أهلي في فلسطين (في صيف ١٩٧٥).. عزّ الظهيرة.. تراب رمادي يثور منه غبار حول خطاي. للناس جلد برونزي لفحته شمس المتوسط، وشعر أسود أو أشقر لامع، ملامحهم غريبة، ضحكاتهم، أسنانهم، وحتى اللغة العربية التي يتكلمون بها غريبة.. فحتى في أحلامي، كنت أحلم باللغة الهنغارية.
كان وكأنّ إدراكي انقلب تماماً: أهلي هم «الغرباء». وبدا لي هؤلاء الناس – أقاربي، أهلي، أصدقائي – وكأنهم جاؤوا من العصر الأشوري، أو من كهوف ما قبل الذاكرة. وانتابتني نوبة فقدان إدراك: لم أتعرف، مثلاً، على شاب قصير وسمين وأشقر، يضحك، ويؤشر، ويسأل، ويجلس مقابلي.. رأيته، في حياة سابقة ربما، ولكن أين؟ ومن هو؟ بعد نصف ساعة، لمع في ذهني اسمه: «الزير».. ابن عم لي، تربينا معاً، منذ الصغر، وذهبنا للمدرسة معاً، وأكملنا التوجيهية معاً، افترقنا ثلاث سنوات فقط، ولم أتعرف عليه.. لم أكن متأكداً مما أرى، فسألته: «هل أنت الزير؟». نظر إليّ بعدم فهم كامل لمدة، ثم قال: «آه، أنا».
طردني أبي من البيت بعد يومين من وصولي: لم أتعرف عليه كـ«أبي»، ولا على بيته كـ«بيتي»، ولا حتى كـ«بيت». تخاصم كعادته مع أمي فرفضت التدخل، وقلت له «اعتبرني في فندق، ولا دخل لي بما يحدث فيه»، فطردني.
ورجعت لبودابست.. قبل هذه الزيارة، كنت «أحن» إلى «وطن»، و«بيت»، وبقاع في الذاكرة تشكل «مرجعية» لي في المنفى والمتاهات، إلى شيء ثابت، دائم، لا يمكن أن يتغير أو يتم «فقدانه». كنت كمن يعيش في بلاد مبنية على ظهر حوت، فيها نخل، وبحارة، وأسواق ذهب، وعبيد، بلاد – متاهة، ولكن على الأقل ثابتة، تحتها ثابت، وفجأة، تحرك الحوت نحو الأعماق، وبدأ كل شيء يغرق، الفكرة عن «الثبات» غرقت. وكل عالمي صار بحراً أهوج لا سواحل له، يسكنه قراصنة على ظهر السفن.

قررت ترك الجامعة والسفر حيث أمكنني السفر. قالت امرأة هنغارية ناضجة في مكتب رئيس الجامعة: «هل قرأت رواية حرب وسلام؟». قلت: «لا، لماذا؟». قالت: «أنت تشبه شخصية فيها تدعى بيير». قلت: «لا أعرفه». وخربشت بقلم رصاص خرابيش ذات تكوين يشبه الدوامة، وقلت، مؤشرا إلى نقطة في وسط الدوامة، «أنا تقريباً هنا». قالت جملة لن أنساها أبدا: «ما دمت تعرف تقريبا أين أنت، لا توجد مشكلة بعد، يوما ما، ربما بعد ربع قرن، ابعث لي برسالة عما حدث معك. أحب أن أعرف».
قرأت «حرب وسلام»، وأحببت بيير هذا: يشبه شقة في حرب، يتكسر الدرج، وتحترق الشبابيك، وتتخلع الأبواب، ويبقى، دائماً في بيير جناح لم يمس بسوء، وصالح للإقامة.. بيير هذا أحببته.
بعد ثماني سنوات كاملة، وصلت هنا، لسياتل، في السنة الماضية، في ديسمبر ١٩٨٥ تحديداً، لدراسة الأدب المقارن في جامعة واشنطن، ثالث جامعة أدخلها. وصلت قبل عيد الميلاد بقليل، ولا شيء كي أفعله بنفسي، ففكرت في كتابة رسالة لها، ولكن العنوان ضاع.
كنت أسكن في فندق «جمعية الشبان المسيحية»، قرب الميناء، وصرت أتسلى بمراقبة العابرين فيه. مرة دخل من باب الزجاج الخارجي إلى الـ«لوبي» شخص مختل عقلياً، يكلّم

واستوقفتني، فوقفت كتمثال حجر، ولا حركة، ولا قبلة. دفعتني أمي من الخلف، ولم أتحرك، وقلت لنفسي لا أريد طعم الموت على شفتيّ ما دمت حياً يرزق، ثم مشيت بعيداً.
مات ولم أقبله حتى في نعشه، وبدأت أشعر بذنب يشبه أغنية «بلوز»، زرقاء، موجعة، متضورة، مسجلة سراً على شريط «شفتيّ». هل سمعت عن شفاه تشعر بالذنب؟ هذه شفاهي: ولو رسمتها لكانت بمزيج غريب من الأخضر والأصفر فيه بياض جاف ومتشقق. صرت أخاف من الكلام، وأخاف من الصمت. قالت لي رسامة فرنسية مرة: «أنت تخسر في الحالتين: إن تكلمت وإن لم..».
وصرت أفرّ من نفسي، ومن كلامي. بعد موته بأشهر، وجدتني في مدينة أخرى وقارة أخرى وزمن آخر: «أيوه»، الولايات المتحدة، ١٩٧٩، أتزوج من امرأة منفصمة الشخصية تدعى «ماري» (اسم مستعار).
التقيت بها في صالون فندق، كانت تدفع أجرة شقتها من التأمين الإجتماعي، ولا تقدر على العمل أو التكيّف، ووحيدة تماما، ويهيمن عليها ماضيها في نيويورك. وعندما تأتيها «نوبة هلوسة» فصامية، كانت أعينها تتسع خلف نظاراتها الدائرية، وتبدو وكأنها رأت شيئاً خفياً، فتنظر يمنة ويسرة، ثم تتركني وتذهب لغرفة أخرى وتغلق الباب. سألتها عما يحدث في تلك اللحظة، قالت بأنها تسمع «مجرماً» يهددها



نفسه، ويؤشر، ويضحك، ويغني على ليلاه. فجأة، اتجه نحوي وانحنى مرتين أمامي، وقال: «متأسف يا مستر، فعلاً متأسف، جداً متأسف، جداً، جداً». لا أعرفه، ولم أره من قبل، ولا أدري لماذا يتأسف، ولا لماذا تخيلني راهباً كاثوليكياً يعترف أمامه بخطاياه. «حالة فضائية».. علّق عامل كهرباء أميركي يلبس بنطلون كاوبوي ويشرب البيرة قربي، أعجبني التعبير: «حالة فضائية». وعلقت على كلامه: «ويسحقها شعور غامض بالذنب».
وهذا، أيضاً، يسحقني. فعندما مات أبي في أواخر سبعينيات القرن الماضي، بجلطة في الدماغ، مددوه في نعش من خشب طبيعي، قديم، في كفن أبيض. وقف أهلي وأقربائي لوداعه صفاً واحداً، كل يلقي بنظرة أسى عليه، أو يقبّله على جبينه. أختي، تلك التي غسلنا شعرها بماء البحر في «الحمام العسكري»، ألقت بنفسها عليه، وناحت، وجرّوها عنه بالقوة كيلا تنهار تماماً.
وجاء دوري. وجهه أصفر باهت، وفيه غضب قديم، وبياض شبحي ما، وبقع خضراء داكنة وغريبة بدت لي متعفنة،

بـ«لكنة نيويوركية» من داخل «جهاز التدفئة»، وأحياناً، تسمع الماء في الحمام ينذرها من شيء سيأتي.
وكانت تحلم حلماً متكرراً بأنها تركض هاربة وحافية تحت زخات مطر شديد فوق جسر معزول فوق نهر ما، ويلمع البرق حولها، ثم يقول لها الرعد، بلكنة نيويوركية: «عودي للمسيح لنيل الخلاص». حلّلت أحلامها واستنتجت أنها تعيش انهياراً نفسياً ناتجاً عن فقدان إيمانها الديني، في بلد ينتج فصاميين كما ينتج ساندويشات.
زرت مع ماري المستشفى الذي تتعالج فيه، وفي ممراته المضاءة، والنظيفة، وفي صالات استراحة بتلفزيونات ملونة وزهور اصطناعية، رأيت بشراً، إن جازت التسمية أصلاً، تدهورت حالتهم إلى «مزيج من الأشباح والنباتات»،يسمونهم الـ«خضراوات» هناك.
في «الحالات الفضائية» يبدو وكأنّ الله أو القدر أو أية قوة أخرى حشر مريضاً في مركبة فضائية وقذفه نحو سكان الفضاء السحيق، أو أن سكان الفضاء السحيق أنفسهم بعثوا للأرض بكائنات من عندهم، ولكن «الخضراوات»

تسكن في عالم سفلي تحت الأرض، في درك من جحيم دانتي، درك خاص بمن صار «تحت حيوان وفوق جماد»، مزيج من الأشباح والنباتات، كما قلت، كنت أحسبه يسكن في خيال السينمائيين، فقط. (لاحقاً رأيت فيلماً مذهلاً عن «الخضراوات» يدعى «أويكننغ» أو «اليقظة»).

وحكت لي ماري قصتها.. فرت وهي طفلة من بيت أبيها وأمها، وتشردت في الشوارع، ثم انتهت متطوعة وفاعلة خير في «كنيسة» ريفية مغمورة: ترتب الزهور الصفراء والحمراء وأية ألوان أخرى يتبرع بها «المؤمنون» في باقات، وتوزعها على منعطفات الطرق وأبناء السبيل. بعد سبع سنين من «فعل الخير»، واعترافاً بتقواها، نقلوها من كنيستها الريفية إلى مقر الكنيسة المركزي في مدينة المتاهات العظمى: نيويورك. ووجدت «راهبة الزهور» نفسها، بعد سنين من العيش على «صليب من الورد»، ليس في «كنيسة»، بل في مركز يدير شبكات من البغاء وتوزيع المخدرات، ومن جملتها شبكة من «الكنائس». حاولت الهرب فحقنوها بمخدرات ثقيلة على ما يبدو، واعتقلت لسنين أخرى في المقر، في قصر فخم، بكلاب حراسة وبرك سباحة، وحدائق، وانفصمت شخصيتها، فأخرجوها حين صارت حطاماً، ليتولى أمرها «خبراء النفس»، وتحديداً خبيرين: أمها وطبيبها.

عرضت عليها أن نتزوج، إمّا يأساً من الحياة، أو لأنني كنت

كانت تتكلم في حلمها، وتهذي عن «طائرة هيلوكبتر» ما، ولم أفهم هذه الطائرة بالذات. من تلميحات عدة فهمت أنها تتمنى أن أكون غنياً معه طائرة «هيلوكبتر». كنت ولم أزل مثقفاً معدماً، فاشتريت لها شيئاً آخر: «لامبة» زرقاء، غامقة الضوء، علقتها فوق سريرها في غرفة النوم. وتحت ذلك الضوء، كنت أراقبها وهي نائمة تهذي، وتحلم أنها امرأة أخرى، تدعى «ميندي»، تصير امرأة أخرى، بصوت آخر، وبأحلام أخرى، وتضاجع رجلاً آخر، وتبكي في الحلم، وأنا أدخن، وأحدق في الضوء الأزرق، وأسمع. فهمت كثيراً من هذياناتها إلا قصة هذه الطائرة: من أين تأتي لتهبط في حلم، ولماذا، ومن هي ميندي هذه؟ حتى دعتني إلى حفلة في بيت أمها.

بيت لواحدة من الطبقة الوسطى، حوله حديقة واسعة من عشب مقصوص، محاطة بسياج من خشب قديم. فكرت بالتجول هناك قليلا. كان ذهولي تاماً حين أتت طائرة هيلوكبتر وهبطت في الساحة قربي، فابتعدت من قوة الهواء والهدير إلى منطقة قرب السياج، وراقبتها.

نزل عن درجاتها شاب أنيق ببدلة سوداء، وفتاة شقراء، حرة وجميلة ولطيفة، وخرجت ماري من البيت وركضت للطائرة، وتعانقت مع تلك الشقراء. طقوس غريبة: رفعت تلك الشقراء قدم ماري وقبلت قعر حذائها، وعرفتني على نفسها: «ميندي، أخت ماري». يا إلهي، لم أصدق عيني: ماري تحلم

فرديتها، وصعب أن أقول: «طيب.. سننظف معاً»، فهذه «مشاعية» سائبة، وصعب أن أقول لها «نظفي أنت»، فهذا اعتداء على فرديتها، فاتفقنا على أن أنظف «نصف الطاولة» الخاص بي، وهي تنظف النصف الآخر، حتى الطاولة انفصمت شخصيتها.

سافرت لشيكاغو أيامها. على باب غرفتي في الفندق، من الداخل، زردان أو حتى ثلاثة من الحديد، وأقفال غير القفل العادي، وكأن النوم فيها مخاطرة بموت لا يرده إلا حفظ رقم هاتف الشرطة، المكتوب على ورقة صغيرة فوق التلفزيون الملون. تلفنت لي ماري مرتعبة، «في نفس ليلة سفرك، جاء مجرم إلى شقتي، وحاول خلع الباب، وكاد ينجح لولا القفل الداخلي، هاتفت الشرطة..».

اقشعر بدني، فأنا من سيتهم بقتلها والهرب لشيكاغو، وكيف سأنجو من السجن المؤبد عندها؟ جلست على السرير أفكر. لعلها «تتخيل» القصة كلّها، فمن عادة منفصمي الشخصية اختلاق أوضاع «اضطهادية» كهذه. على كل، كنت أتوتر إلى حد أنني صرت أدخل في نوبات من الإرتجاف. كان عليّ أن أحسب كل حرف، كل تعبير، كل حلم، كل حركة، وأن أقدر أي أثر على نفسيتها. وأمها وطبيبها اتفقا على أنني تزوجت منها لأنني «بلا هوية»، ولا أعرف «من أنا».. وربما كانا على حق، لكن أية «هوية» خلقا لماري؟ أمها حوّلتها إلى بغاء، وطبيبها إلى «زبونة» يستطيع عبرها أن يقيم علاقة جنسية بأمها! وتطلقنا.

ووجدتني بعد عدة سنين في فلسطين أسكن شقة حديثة من حجر أبيض خلف سجن رام الله المركزي، وتسكنني مخاوفي من الجنون. كتبت لي، لحسين الآخر ذاك، شبحي:

«تحلق في زرقة السماوات طيراً من تَنَكْ
لا شيء ضدك أو معكْ
ويشدك للأرض خيط حرير، فقط
والأرنب البريّ يقضمه لتفقد موقعكْ».

كان لدي شعور بأنني أفقد آخر خيط يربطني بـ«الواقع»، آخر خيط. فأحلق لحيتي في المرآة، ليلاً، وأقول: «ابق على الخط». كان يحكم رام الله أيامها، و«الضفة الغربية» كلّها، حاكم عسكري إسرائيلي يدعى «مناحيم ميلسون». وفي الصالون، ليلاً، على ضوء تلفزيون مشوش ورذاذ إلكتروني، قرأت تحليلاً عن شخصيته، ولا أدري لماذا ارتعبت من التحليل، وقلت له، لمناحيم ميلسون، أيضاً: «ابق على الخط».



ألعب دور مسيح يوزّع من فوق صليبه زهوراً على راهباته، أو لأنني كنت أريد امرأة في الليل بأي ثمن. فكّرت في «سحب كلامي» بعدها، فقطبت حاجبيها، وبدت وكأنها تجد صعوبة في التركيز في نقطة في ذهنها، وأخذت شفتاها شكل منقار من لحم أبيض.

شعرت شعوراً ساحقاً بالذنب والشفقة عليها وقلت إنني أمزح. ربما كنت أحدس بأن شخصيتي ستنفصم، قريبا، إن وفقني الله، وقلت إنني «أمزح». تحسنت حالتها بعد الزواج، جزئياً، لأنني كنت غرقت سنين في «علم النفس»، وأعرف كيف أتعامل معها، وجزئياً، لأنني، أنا نفسي، «حالة فضائية».

دعتني أمها وطبيبها لعشاء فخم ذات ليلة، وسألاني «كيف تعاملها؟». أرادا فهم كيف تحسنت حالتها فصارت تطبخ، وتركض، وتبحث عن عمل، أي بدأت بترميم ما يدعوه فرويد بـ«الأنا»، ولم تتحسن عندهما. «كيف تعاملها؟». قلت: «كإنسان». ولم يفهما مغزاي، هل أقصد أنني أنا نفسي «إنسان»، أم أنها هي «إنسان»، أم، كاحتمال بعيد، أنا وهي، معاً، بشر، ولو كفرضية.

أنها أختها!. وتبرعت أمهما بتعريف ميندي عليّ قبل أن أعرفها بنفسي: «وهذا حسين، زوج ماري، وطبعاً، ليس شحاذاً».. لو كنت شحاذا، لخبأتني في خزانة من أمام المليونيرة!

كنت لاحظت أن ماري تبدأ جوابها عن أي سؤال أسألها إياه بـ«طيب.. قالت أمي»، أو «طيب.. سألت أمي..»: «ما رأيك في الزهور الصفراء؟»، «طيب.. سألت أمي». «وما رأيك في الجليد؟»، «طيب.. قالت أمي».. عقل ببغاء. وأبوها، يكرر صيغة واحدة كحل لأية مشكلة، إن احتاجت، أن تسهر معه ساعة، فقط ساعة، سيقول: «ماري، يا حبيبتي، تشعرين بالوحدة، وهذه مشكلتك الخاصة»، وإن سمعت مجرماً يكلمها من «جهاز التدفئة» بلكنة نيويوركية، وتلفتت له في حالة هستيريا، سيقول: «ماري، يا حبيبتي، تسمعين مجرما من نيويورك، وهذه مشكلتك الخاصة».. وماري هذه فردية جداً، كأبيها.

مرة جن جنونها لأنني نسيت فنجان «قهوتي» على الطاولة في المطبخ. «أنا لست خدّامة لك»، صرخت وهي ترجف. صعب في عوالم غارقة في فرديتها أن أقول: «طيب.. سأنظّف الطاولة»، فهذا فيه تنازل عن «فرديتي» أنا، أمام

تتناوشه مثلي وساوس عن فقدان صلته بـ«الواقع». وهوسه بـ«الوقائع»، وتقارير المخابرات، والأوامر، وكل ما يلزم لإدارة وحكم «الضفة الغربية» كلها، ليس إلا للبرهنة لنفسه أنه لم يزل على صلة بـ«الواقع». ولكن هذا الواقع مثل الماء بين أصابعه، وينزلق منه باستمرار، وكلما انزلق الواقع أكثر، زادت مخاوفه، وزاد هوسه بالتحكم بالأشياء والناس، لكي يبقى على صلة بـ«الواقع».

نهر الأردن خيط حرير يشق المكان إلى «ضفتين»: غربية وشرقية. ومناحيم ميلسون يحكم الغربية فقط، وهناك ضفة أخرى تنزلق من بين يديه باستمرار، وهوسه بالهيمنة عليها يشبه الأغنية الصهيونية المعروفة: «للأردن ضفتان: الأولى لنا، والأخرى لنا». ولو اختفى نهر الأردن نفسه، لو قضمه الأرنب البريّ، لاختفت ضفتاه، ولما عرف مناحيم نفسه «شرقه من غربه». والتاريخ ماكر: انفصام شخصية المكان إلى ضفتين حالة «فضائية»، فيها كل شخصية تستقل عن الشخصية الأخرى، ولا بد من «ممر» ما، خدعة ما، كي يمكن القول إن الشخصيتين تسكنان معاً في «نفس» الشخص رغم استقلالهما، في «جسم واحد»، ومريض واحد، ومكان واحد. هذه الخدعة جسر صغير من خشب وحديد فوق نهر الأردن نفسه، ممر وخدعة، من هنا يعبر، خارجاً من الغرب للشرق، من حشره التاريخ في قنينة الاحتلال، ومن هنا يعبر، داخلاً

من الشرق للغرب، من سوف يحشره التاريخ في قنينة الاحتلال، ولا مكان هنا لا للدخول ولا للخروج إلا من شخصية أولى إلى شخصية أخرى في وضع فصامي. الـ«جسر» هو لحظة تبديل الشخصيات، من ماري إلى ميندي، مثلاً، حين تستولي على الفصامي شخصيته الأخرى وتنزاح الأولى، أكثف تعبير عن اللامكان، عن فلسطين، وعن المدينة التي كنت أسكنها أنا ومناحيم ميلسون معا: رام الله.

كنت أجوع أيامها، وبلا بيت ولا مال ولا شيء آخر، فأكتفي بشرب بيضة نيئة أو بيضتين يومياً، يا إلهي ما أتعس رائحة البيض النيء في معدة خاوية، معدة لمدمن على التدخين والتوتر.. ودعاني صديق كان طالباً معي في جامعة بيرزيت، إلى السكن مع شلة في تلك الشقة الحديثة من حجر أبيض خلف السجن. شلة أطعمتني، وأسكنتني بكرم حاتمي. ووجدتني أنام على أريكة ذات غطاء أخضر فاتح في الصالون، وليس في غرفة «عادية» أو في لون «عادي». والصالون هو «الجسر».

في ليلة ما غفوت وتركت التلفزيون الملون مفتوحاً، واستيقظت مرتعباً من شيء خفي في الروح، ونظرت حولي: قرب التلفزيون، على مقعد خشبي، تقريبا رأيت شخصاً آخر يشبهني، نسخة عني، وبدا بأنه كان هناك من زمن طويل يراقبني وأنا نائم. تقريباً رأيت، أي شعرت بحضوره، بطاقة في الجو، كطفل شعر بأن أباه الميت كان يجلس هنا، ويحلق لحيته في المرآة هناك، وبالتدريج، تتكاثف الذكرى، والطاقة، وحضور الموتى، وتقريباً يرى أباه جالساً في الكرسي كأن لا موت هناك. شعرت بأنني داخل شقة أخرى انفتحت في الشقة أو كأن شخصية أخرى للشقة استولت على الأولى.

قلت «ابق على الخط: أنت تتشبه بنهر الأردن، وعلى وشك الانفصام إلى ضفتين».

في ذلك الصالون، كتبت الفصل الأخير من رواية «الضفة الثالثة لنهر الأردن»، كتبها حسين آخر، شخص يشبه مناحيم ميلسون، ويسمع، ليلاً، في الجبال، حركة أرنب بري يقضم آخر خيط يربطه بـ«الواقع». وكتبت، مع نفس الصديق الذي دعاني للشقة، قصيدة فجة، كنا نعتقد أنها جميلة، أهديناها لمدرب الكاراتيه:

«سأدخل في هذه الشقة الخاليةْ
تلفنوا لي: سأترك قرب الهاتف فيها ذاتي الثانيةْ
وأخرج إن خرجت وفيّ إصرار الخوارج أو خداع معاوية».

كنت على وشك التصدع الكامل. وفي آخر أيامي، في الصالون نفسه، في هذه المساحة من بلاط مرقط بالأبيض والأسود، حلمتني في حانة من خشب على النمط الأميركي، سبق ورأيتها في فيلم «كان يا ما كان مرة في الغرب»، وكانت تتأرجح فوق هاوية لم أدركها، والسقف يدلف بقوة، ومنه تنزل مزاريب ذات صوت غريب، ومن وسطه، تتأرجح بجنون لامبة كهربائية صفراء الضوء في طرف سلك أسود، وتذهب من أول السقف إلى آخره ثم تعود، وكلما تغير موقعها، تغير الضوء الشبحي المبتل الذي يصدر منها، وتغيرت الحانة معه، والأثاث كله يتزحلق تحت المزاريب جيئة وذهاباً، كل شيء مبتل، وكلما تشبثت بشيء وقع، فوجدتني مستلقياً على بطني فوق المصطبة أحاول القبض على سطح خشبي أملس، على محض ضوء على خشب، ولما تمكنت منه قليلا، انكسر لوحان في المصطبة في بقعة بين يديّ وتحت وجهي مباشرة، وانفتحت هوة فيها رأيت موجاً أسود لامعاً يصعد نحوي ويهبط كي يصعد ثانية، وشعرت برعب من الموت غرقاً، وأدركت أن الحانة كلها تطفو فوق البحر. كنت أتخلع.

يا إلهي كم كنت أحنّ إلى التوازن! مرة رأيت عرضاً بهلوانياً صينياً: صبية تنام على ظهرها وترفع قدميها، وعليهما تبني صبايا أخريات هرماً شاهقاً يصل السقف. استغربت جماله وتوازنه، فقال لي صديق ما: «لماذا تستغرب يا حسين؟ هذه الثقافة الصينية تبحث منذ خمسة آلاف عام عن «توازنها»، هذا هرم يأتي من التاريخ». ومن أنا الآن، يا بري، غير مجنون يركض في جبل مقمر في ذهن تاريخ مختل؟! من أين لي بالتوازن، أو بتاريخ متوازن يا بري؟. يا إلهي! حتى الكلمات لم تعد..

كان بري يصغي، طوال الوقت، وفي عينيه بريق أسود قلق، وكأن في عينيه سطرين من سطور الغيب يوشك أن يبوح بهما ويتردد. أنهيت كلامي، وعلى عكس ما توقعت، لم يعلّق. وأخذ يلف لفافة تبغ بصمت، ثم قال جملة واحدة: «ذهنك اجتماعي يا رجل، وأنا أستطيع مقارعة كل شرّ، إلا الشرّ الإجتماعي»، وبصق فتات التبغ من فمه، وأطرق مرة أخرى.

خلفه شباك واسع مفتوحة دفتاه على فضاء شفيف وأزرق وغامض، وبدا هو كتلة منحوتة في إطار الشباك. اتكأت على حافته، وسرحت في تأمل شجرة ورد سامقة قرب سياج خشب. ما الذي أبحث عنه هنا، في هذه القارة كلها؟ خطر في بالي فيلم عن دير صيني قديم، فيه طفل زرع له الراهب شجرة ورد، ليدربه على الـ«كونغ فو»، وقال له أن يقفز فوقها كل يوم، أعلى فأعلى، حتى سمقت الوردة عالياً، وصار يقفز بخفة قِط، كبرت معه وكبر معها.

وذكرني هذا بفيلم آخر عن معبد «تشاولين»، في الصين القديمة، بقايا فيلم اهترأ في الذاكرة عن راهب بوذي يعلّم شاباً منذ نعومة أظافره على الكونغ فو، فيكبر في الدير، ويسلمه الراهب سلسالاً فيه نصف ميدالية من ذهب، ثم يقول له: لا يوجد الآن أحد يعرف أكثر مني ويستطيع أن يعلمك شيئاً جديداً في هذا الفن، إلا راهب آخر في مدينة أخرى في أقصى الصين، اذهب إليه، وأعطاه عنوانه. «وكيف أعرفه؟». «عنده نصف الميدالية الآخر، فابحث عنه»، ردّ الراهب.

وفي المدينة الموعودة، يكتشف أن العنوان الذي يبحث عنه غير موجود. وأثناء تسكعه في المدينة بحيرة كاملة، وعنوان خاطئ، تحشره عصابة في قاعة واسعة وتكاد تقضي عليه، ويشعر بالدوار، ويكاد يسقط، فيحدق في قلبه في لحظة بدا له فيها وكأنه سيموت، فيرى، كما في حلم، معلمه من «تشاولين» يهتف به: معك أنت نصف الميدالية الآخر، أنت هو الوحيد الذي يستطيع بأن يعلمك أكثر مني.

منذ سنين وأنا أحلم أن أترك كل شيء في حياتي، وأذهب إلى دير في الصين، وأتعلم الكونغ فو، ولا أخرج من هناك أبداً. ولكن هناك نوعاً من الناس، مثلي، لا يمكنه أن «يحسم» كل حياته، كلها، لآخر ذرة في قلبه، من أجل أي شيء في الدنيا، وقدره أن يبقى «مشتتاً»، كالندى فوق العشب، بدل أن تتوحد كل قطراته لتكون جدولا أو نهراً، وتحسم نفسها بـ«اتجاه» ما، اتجاه واحد لا رجعة عنه ولا شك فيه. أعني أنني من هذا النوع الذي لا يحيا لأجل أي شي إلا بنصف قلب، على الأكثر، وكل شروره تأتي من نصف القلب هذا، إن بقي لديه أي قلب أصلاً. وأوصلني هذا إلى صحراء روحية ما.

وتذكرت، وتذكرت، وتذكرت، كل حياتي هكذا: مسلسل من «الذكريات»، وكل فكرة تقود لأخرى، تقود هي نفسها لأخرى، تقود هي نفسها لـ.. وذاكرتي ليست دقيقة أبداً، وعادة ما أبدّل وأغيّر فيها، وأرمّم، وأحذف، وأبقي، وأخترع ذكريات، وهكذا، وهكذا. وضعت رأسي على حافة الشباك وكأنني سأغسله في الفضاء الأزرق وحاولت ألا أتذكر شيئاً أبداً.

ثم انتبهت فجأة لكونه لم يقل شيئاً، وهذه إهانة. قلت بغضب: «بري، لم تعلق على كلامي!»

«لكل شخص رقصته مع الحياة يا رجل، ولا أستطيع رقص رقصتك معها»

«مصيري فردي، كشجرة الورد هذه، تنمو وحدها، وجميل منها أن تنمو وحدها، لكن ما رأيك في رقصتي؟».

لفّ لفافة تبغ من نوع «عثمان»، وبصق الفتات، وقال ضاغطاً كل حرف:

«ميز الذهن عن محتواه يا حسين!».

أول مرة أسمع عن تمييز كهذا. ولم أفهم شيئاً إطلاقاً. رجعت للطاولة وقعدت وحدّقت في عينيه كالأبله، بحيرة كاملة. ومرت لحظات صمت مطبق، ثم قلت:

«وما الفرق بين الذهن ومحتواه؟».

كان أمامه صحن كبير أبيض فيه بقايا بيض مقلي، وأعقاب سجائر، وفتات خبز فرنسي. قبض على حافة الصحن بنوع من الاشمئزاز، ورمى بكل ما فيه من بقايا على الموكيت الأزرق القذر، بقربي، ثم رمى الصحن الفارغ على الطاولة، أمامي، وقال مؤشراً إليه:

«هذا هو الذهن».

وأشار إلى بقايا البيض والسجائر والخبز على الموكيت، وأكمل:

«وهذا هو محتواه!»

«الحقيقة دائما ملموسة.. كن ملموساً الآن: ما هو محتوى ذهني؟»

«ذهنك سعدان لدغته عقرب ماضيه، فصار ينطّ ويزعق: وع! وع! وع! وع! وهذا هو محتواه: زعيق قرد».

وتخيلتني سعداناً قصيراً يمسك بقدمه اليمنى ويقفز على رجل واحدة في فسحة في غابة ويبتعد عن العقرب زاعقا وع! وع! وع! ضحكت، وقلت:

«تقريبا هكذا»

«ليس تقريباً يا حسين، ذهنك سعدان ملدوغ. تشبه هذا الفقير الهندي الذي جاء إلى دير بوذي بحثاً عن إنارة روحه.. وقعد يروي للراهب عن ماضيه، وعذابه، وذكرياته، وعن حاجته للتنوير، ويروي، ويروي، ويروي، والراهب يصغي ويصب الشاي في فنجان على الطاولة. طفح الفنجان، وسال الشاي على الخشب والأرض، والراهب يصب، والرجل يروي ويروي ويروي، إلى حد الملل، وأخيراً انتبه فقال للراهب: طفح الشاي من الفنجان، لماذا تواصل الصب فيه؟ فرد الراهب: (ذهنك يشبه هذا الفنجان، مليء، أفرغه مما فيه، كي أصب لك شاياً جديداً)»

«تعني أني ممل؟»

«نعم، ممل، يا رجل، لست أقصد منها الإهانة، فالمعرفة لا شخصية، لكنك ممل. هل تدري لماذا؟ لأن فنجانك مليء بشايك القديم.. أفرغه».

ونهض غاضباً نحو رفّ كتب عليه كومة من أوراق كمبيوتر ممزقة وقذرة، كان يلتقطها من الشارع ويجمعها عنده، وأخذ ينبش فيها، ثم سحب من تحتها كتاباً قديماً، عرفت لاحقاً أنه عن الحكمة الأنثوية عند الهنود الحمر، ويدعى «ميديسن ومن»، «المرأة الطبيبة»، وهو اسم بديل عند البعض، في الأنثروبولوجيا، لأسماء مثل «الساحرة» أو «المشعوذة». فتحه، ولم أدر هل كان يرتجل أم يقرأ منه، لكنه كان يحدّق فيه، وبدا، في الوقت نفسه، وكأنه يتخيل رقعة شطرنج أمامه على الطاولة. مدّ يده وقبض على كتلة صغيرة من الفراغ بأصابعه، ورفعها في الهواء نحوي ببطء، وقال:

«هذا رأي من آرائك».

ورمى، بحجر شطرنج وهمي على الموكيت، وبلذة كاملة، وفي صوته عمق غريب ورهبة من قوى غامضة:

«واو! واو يا رجل: وهذه نظرية من نظرياتك»

ورمى حجراً ثانياً..

«وهذه ذكرى من ذكرياتك»

ورمى حجراً ثالثاً..

«وهذا حلم من أحلامك»

ورمى حجراً رابعاً..

«وهذا وجع من أوجاعك»

ورمى حجراً خامساً، وظلّ يرمي بالحجارة حتى صارت الرقعة فارغة، ثم نظر إليّ وقال:

«هذا يدعى إفراغ الذهن من محتواه».
لم أرد استفزازه أكثر، بأن أقول، مثلاً، لم أفهم. وفضّلت الخرس. وصلني ما قاله ولكن لم أفهمه، فكثرة المعلومات لا تؤدي إلى الفهم، كما قال هيراقليطس، وكان أذكى من ألا يلاحظ ذلك، فألقى الكتاب من يده، وقال في نوبة من غضب جامح:
«اسمع يا رجل: الحياة نهر وكل يغترف منه بحجم فنجانه.. فنجانك صغير».
قلت بسخرية وهدوء، ناوياً أن أدفع غضبه إلى أقصى مدى ممكن:
«وما هو فنجاني؟».
قفز للمطبخ وأحضر فنجان شاي فارغاً، ثم هزّه أمام عينيّ وقال:
«ما هذا؟»
«فنجان»
«هل تسميه فنجاناً إن كنت تستطيع أن تصب شاياً فيه فقط، وليس قهوة أو عصير تفاح، مثلاً؟»
«لا»
«وإن كنت تستطيع أن تصب قهوة فيه فقط، وليس ماء أو عصيراً، مثلاً، هل تسميه فنجاناً؟»
«لا»
«لماذا؟»
«لأن من طبيعة الفنجان أن يكون فيه فراغ ما، ومن طبيعة الفراغ أن أستطيع أن أصب فيه ما أريد»
«هذا هو الذهن: فنجانك الذهبي. من طبيعة الذهن أن يكون فارغاً، ومن طبيعة الفراغ أن يكون قابلاً لأن تصب فيه أي رأي، أو نظرية، أو مذهب، أو معرفة، أو شعور، أو ذكريات. ميّز بين الذهن ومحتواه كما تميز بين الفنجان والشاي الذي في الفنجان، يا رجل!».
قلبي كان يعبر من عوالم لعوالم أخرى مع كل كلمة منه. وكنت مذهولاً من طريقة فهمه للأشياء: أول كائن، أو مجنون، لا يناقشني ولا في أي شيء مما رويته له عن حياتي، ويشير علي بأن ألقي بكل «ذاكرتي» في صناديق القمامة. الإنسان هو تجربته، وذاكرتي من تجاربي. هو نفسه قال لي: «تجاربي معبدي ومعبدي مقدس». قلت مستفزاً:
«أنت تناقض نفسك، أم تعتقد أنني غبي؟».
فصرخ في وجهي:
«هل أناقض نفسي؟ نعم، أناقض نفسي. وشو يعني؟ عقلي من ذهب نقي، ذهب نقي، هل أناقض نفسي؟ نعم أناقض نفسي! وشو يعني؟ عقلي سكينة من ذهب، وقد حفيتُ يا رجل وأنا أفسر لك نفسك! هذا ما فعلته أنا لأجلك، ماذا فعلت أنت لنفسك؟ هل ستقضي حياتك بين المقاهي؟».
شعرت بوجع عميق في معدتي من كلماته، وجع عميق، لأنه قال حقيقة لا أريد أن أراها: كنت أقضي جلّ حياتي في المقاهي، في نهر تافه يدعى «الحياة اليومية»، والحياة اليومية كلها خيال أدبي فقير. وكنت قد تعلمت من رواية «طريق محارب مسالم» أنني مدمن، أعني أحيا تحت سطوة عادات فقدت سلطتي عليها وعلى تغييرها.
«وماذا أفعل؟»
«أن تفعل شيئاً يعني أن تغيّر شيئا. قبل عدة سنين، كنت في معبد في «جزر هاييتي»، وقد هيأتك جيداً للذهاب إليه، أعرف فيه راهباً، معرفته تفوق معرفتي، راهبا مرعبا يا رجل، وسأبعثك إليه، سيقول لك هو بنفسه إنني هيأتك جيدا، اذهب هناك».
بدأت أشعر بالتشتت، والتعب فعلاً. وشعرت بألم آخر من نصيحته لي بالذهاب إلى هاييتي، بألم، لأنني أحببت هذا الرجل، فاستأذنت وخرجت إلى بيتي. نظر إليّ بحزن، وهزّ رأسه، ولم يعترض.
كان الجو بارداً قليلاً، والهواء منعشاً، واتجهت إلى الأستوديو. أخذت «دوشاً» ساخناً وطويلاً، وكأنني أطرد جليداً من عظامي، ولكن الحرارة الخارجية لا تصل للداخل. وألقيت بنفسي في «كيس نوم» من البوليباستر، وحاولت أن أغفو. لم أكد أغمض عينيّ حتى سمعت نقراً خفيفاً على الجدار الزجاجيّ من الخارج، وسمعت بري يقول مؤنّبا: «يا رجل، أنت تنام للأبد! تعال، أريد أن أريك شيئاً غريباً».
فوجئت من قدومه، ومن نبرة صوته، كان وكأنّ شيئاً ما حدث معه، شيئاً غامضاً. نهضت وخرجت خلفه. كان يؤشر باتجاه ما، نحو أزقة خلفية، فتبعته. وظل يمشي، ويقول:
«حسين، لا تثق ولا حتى بي، لا تثق ولا حتى بي، ولا حتى بي، ولا بأحد».
وكان يبدو مهزوزاً، ويبكي، ويمسح دمعه بكمه، ويبدو هائجاً، وأنا ألحق به لا أدري ماذا حصل. وصلنا إلى غابة فيها بركة ماء واسعة، وكان الصبح انبلج تماماً، والماء يبدو صافياً، وأستطيع رؤية قعر البركة. قال:
«انظر هنا، هنا، في القاع»
نظرت فرأيت القاع بوضوح، ولم أر شيئا آخر.. قال:
«انظر القاع»
ونظرت ثانية.. كنت في حيرة كاملة، فحدقت في عينيه، مسح دموعه، وقال:
«حسين، أرأيت القاع؟»
«نعم»
«هل القاع واضح تماماً؟»
«نعم»
«ألم تر أي حاجز بين السطح والقاع؟»
«لا!»
«ولا أي شيء بين السطح والقاع؟»
«لا!».
وحدقت فيه بعدم فهم كامل، قرب وجهه مني وقال ضاغطا كل حرف: «أنت تحتاج هذا الوضوح، أن ترى العمق كما ترى قعر الماء في هذه البركة. انتهى الدرس».
وفهمت الدرس، وكان درساً جيداً، لكن لم أفهم ما سرّ بكائه أبداً. مرّة بكى وسألته لِمَ يبكي فأجاب: «على هذه الإنسانية الساقطة يا رجل!». ولكن هذا جواب على بكاء سابق، ولا تفسير لبكائه الآن.. تركني عند حافة البركة، ومضى وحده. وقفت أراقبه يبتعد، وأراقب البركة، وأفكر. فجأة، نظر للخلف ورآني لم أزل مصلوباً في مكاني. توقف ونادى:
«يا رجل! في كل ذهن تسبح الأفكار وتبقى نتفٌ: بين الفكرة الأولى وبين الفكرة الأخرى هناك الكثير لكي يكتشفْ». وهزّ إصبعه، كمن يقول إنه يعني ما يقول، ثم مضى.
ومن هذه الكلمات، شعرت أن روحي التي كانت تشبه كتلة متراصّة، صارت «غربالاً»، انفتحت فراغات بين «كل فكرة وأخرى»، وكأن ذهني صار جزراً صغيرة متباعدة في محيط أزرق مشمس، بين الجزيرة والأخرى معارف لا نهائية غير مكتشفة، وشعرت أن كل ما أعرفه لا شيء، مقارنة بما يمكن أن أعرفه. أوليس هذا نوعاً من أنواع إفراغ الذهن من محتواه؟ هناك كلمات «تملأ» الرأس بمحتواها، وكلمات «تفرغه» من محتواه، والأخيرة أجمل. الذهن هو «ممكناته»، وليس «ما فيه»، أو كما قال جبران، لا يقاس الإنسان بمنجزاته، بل بما يتوق إليه، الذهن «توق»، حنين نحو مستقبل. ولكن إلام يتوق، وماذا يريد من توقه؟
فتحت كيس نوم من البوليباستر، وغمرت نفسي فيه. «أن ترى القاع، ألاّ يوجد أي حاجز يشوِّش المسافة بين السطح والقاع، أنت تحتاج هذا الوضوح، تحتاج هذا الوضوح.. تحت..».. وغفوت لمدة لا يعلمها إلا الله.
لم أعد إلا بعد ليلتين. كان معه في البيت شاب أميركي نحيف وطويل وأشقر، جلده أميل للشحوب، وله شارب مستطيل، ويبدو طيباً وعادياً جداً، وآخر أسمر البشرة، مهندم، وحليق اللحية، مستدير الوجه، بأعين تطفح بالحمرة، بدا لي مدمنا على المخدرات. قال الأخير إنه لا يحب أن يكون وحيداً في بيته ليلاً:
«حين أكون وحيداً، أرى سربا من نساء جميلات عاريات يمرقن ببطء أمامي، هكذا، هكذا، يمرقن (ورسم بيده نصف دائرة)، كالتصوير البطيء في السينما، وينظرن إلي بصمت، لا أتكلم عن خيال، بري، أقسم بالله، ليس عن خيال، بل عن حقيقة، أراهن يمرقن، هكذا، هكذا..»
«أعرف يا رجل، أعرف»، تمتم بري.
سألته مذهولاً:
«تعرف ماذا؟».
أشار إلى الدرج الداخلي الذي ينزل من الطابق العلوي، والمغطى بموكيت أزرق مهترئ وقذر، وقال:
«أحياناً، عن هذا الدرج، تنزل نساء قبيحات وعاريات، من أقبح ما مرّ في خياله، سبحانه، أسميهن «الجميلات»، مجاملة يا رجل، مجاملة، سبحانه في خلقه»، وفرط ضاحكاً..
سألته:
«وماذا تفعل بهن؟»
«اسأل ماذا يفعلن بي يا رجل!».



وأغرق في الضحك حتى نزلت دموعه، وهو يلف لفافة تبغ، ثم قال مقرّباً وجهه مني: «عندي حس ذهبي بالضحك يا رجل، الآلهة جدية، وبري ضحوك». وبدا لي في هذه اللحظة أنني مع مجنون يستيقظ من جنونه لبرهة أو لأخرى، بالضحك من الأشباح، أو عليها، أو معها، والجنون وطنه. شعرت بأن عليّ، للخروج من الجنون، تعلم الضحك الذهبي هذا. نعم، الضحك الذهبيّ، لم ألتق قبل هذا المخلوق بإنسان يضحك.

وقف شعر رأسي من الخوف، رغم ذلك، لا أخفي. وجه الشاب الأشقر اقشعر من الخوف، أيضاً، أكثر مني بكثير، وبدا جلده أصفر جداً. قال إنه سيخرج لشراء قنينة نبيذ، وطلب أن أخرج معه.

في شارع واسع وخال، ومضاء بالنيون، شعر بالرعب، فقال: «سأمسك يدك»، ووضع يده اليمنى تحت ذراعي والتصق بي، وقال إن اسمه «جو». حاولت تهدئته. كنت أنا نفسي مضطرباً، لأن الجنون الشامل فيّ بدأ يستيقظ. وهذا أنا، مع مجنون أو مجانين، أرى ماذا سيكون أمري عليه.

في الفن، يجب أن تلامس الجنون دون أن توقظه، وكنت ألامس الجنون وأوقظه، في الحياة، وهذا أخطر. ولا أستطيع العودة من حيث جئت، وأملي في الخروج كان متوقفاً على بري.. نقطة. وعليّ أن أتعلم منه فن التذبذب بين الصحو والجنون، على الأقل. حاولت أن أتخيلني وحيداً في الأستوديو، ولكن عندما تدخل نساء من هذا النوع عليّ، سأجن، حتما سأجن، حتى ولو فكرت في الأمر فقط، ولم أر شيئاً، سأجن، ولو دخلت واحدة فقط، وليس سرباً، سأجن. كنت تعلمت من رواية «طريق محارب مسالم» تكنيكاً مفيداً: إن خطرت في بالي أفكار جنونية من هذا النوع أقول: «دعها تمر»، لا تفكر فيها، انسها حالا! وأنساها، لا أحللها، ولا أحاول فهمها، ولا حتى أفكر في كوني لا أفكر فيها، فقط أتركها تذهب كما جاءت. «استخدام العقل» في منطقة كهذه ليس إلا طاقة جديدة تدفع بالجنون إلى مداه.

ولكن ما العمل إن «رأيت» فعلا نساء ينزلن لي من «طابق علوي» في عالم آخر؟ فكرت في سؤال بري عن هذا، ولكن السؤال سيستفزه جداً. لو قلت له مثلاً: «بري، هذا العالم الذي تحيا فيه جنون، كيف تخرج منه أو تبقى يقظا؟»، سيصرخ : «يا رجل، أو ليس لديك إيحاء أفضل من هذا؟»، أي لا «توحي» إليّ بأنني مجنون، لا تلعب بقواي النائمة، فتوحي لي بأنني مجنون، لا تزرع، رغم إرادتي، فكرة «سلبية» في رأسي عن نفسي، وإلا فأنت «منهم»، هؤلاء الذين يقتاتون على قواي. كنت أعرف أنه سيردّ هكذا. فكرت في صيغ أخرى. ولما رجعنا بقنينة النبيذ، كنت قد توصلت، لصيغة معقولة ومواربة، أي ماكرة. انتظرت حتى ذهب الشابان، وسألته:

«كيف تعبر في بقعة خطرة؟»

أشعل لفافة تبغ، وبصق الفتات من فمه، وقال بعد صمت: «بمعرفة أنني أنا، أيضا، خطر».

ولمعت في ذهني فكرة أن «الجنون» نوع من أنواع الضعف، وللخروج منه، لا بد من «الإيمان» بأننا لسنا فريسة، بل نمور وصيادو نمور وخطرون.

تذكرت ليلة استيقظت فيها في صالون الشقة خلف سجن رام الله، وكنت وحدي. إضاءة صفراء.. صمت.. طنين صمت، بالأحرى. سمعت شبحا في المطبخ يجلي الصحون، شبح أنثى من نوع شرير، أسود.. باب المطبخ كان مفتوحا، ولكن بمواربة، ولا أرى.. قشعريرة سرت في جلدي، كهرباء خوف ما ورائي. غمرت رأسي بالفراش بلا جدوى، وحاولت أقنعني أنني «أهلوس»، ولكن «تفكيري» في الشبح زاد حضوره. لمحت ملابس «الكاراتيه» البيضاء معلقة على الحائط وفوقها حزام أسود. قفزت إليها، ولبستها، شددت الحزام على خصري وأنا أرجف. واتجهت إلى المطبخ صارخاً:

«لن أسمح ولا حتى لشبح أن يجلي صحوني». ودخلت المطبخ.. لا صوت.. أشعلت الضوء.. لا شيء.. ثلاجة تئز، قطرات ماء تسقط من الحنفية، خبز، مجلى، صحون، لا شيء غير عادي. شربت الشاي ورجعت. نمت ليلتها بملابس الكاراتيه.

ليس الغريب أن إرادتي تغيرت من إرادة «منسحبة»، «خائفة»، إلى إرادة محارب غاضب يعرف أنه «أيضاً خطر»، فعاد المكان لي بعد أن كان عليّ، بل كون هذا حدث حين بدلت ملابسي بالذات. لباس الكاراتيه يرتبط في قلبي بالقوة، بقاعات من إسمنت مسلح فظ، فيها تتجمع برك ماء في عز الصقيع، والريح تدخل من شبابيك عالية ومكشوفة، وأنا في «قتال حرّ» مع الخصم، وأهاجم، وأنضح عرقاً. هذه «الذاكرة» نائمة في اللباس نفسه، مثلما كانت تنام معرفة الخير والشر في التفاحة الإلهية التي أكلت منها حواء وآدم في الجنة. لون بدلة الكاراتيه الأبيض وحده، أو لمسة منها لجلدي، تكفي لكي تسيل القوة منها إليّ، لتعود لي ذاكرة ضائعة بأنني «أنا أيضا خطر». هويتي تنتشر حتى في ملابسي، هويتي كـ«محارب»، وليس كضحية ممكنة. مرة قال لي معلمي في الكاراتيه، حسن الحلواني، إن قوة ضربتك ترتبط بقوة قناعتك أنت بها.

وأدركت بعض أسرار ما حدث معي في ذلك الصالون في رام الله: أيامها كنت لا أملك مالاً، وأضطر لأن ألبس ثياب غيري، وكان قلبي يعرف قبلي أن «ثياب» الآخرين كانت «علقة» تمص من دمي قوتي، خفية، وتشعرني بالضعف، بأنني طفيلي، مثلا. قوتي في جلدي فقط، لا مساحة أرحب. وتذكرت كيف كانت المخابرات الإسرائيلية، حين تحقق مع سجناء فلسطينيين، تعرض عليهم «سيجارة»، قبول سيجارة المحقق يعني، في منطق السحر، قناة تسيل منها هوية السجين إلى هوية المحقق، فيضعف السجين، أي يبدأ انهيار فكرته عن نفسه ككائن مستقل تماماً عن المحقق، بسيجارة. وتذكرت كيف تقوم «وكالة الغوث الدولية» بتوزيع «المؤن» على اللاجئين الفلسطينيين في «أكياس» مكتوب عليها «تبرع من..» الولايات المتحدة أو غيرها. هذا سحر يشعر الإنسان بأنه بلا كرامة، بالضعف، وتحت رحمة «التبرعات» من الإمبراطورية. والسحر هو منطق الدنيا، من العصر الحجري حتى الآن.

وبهذا تبوح جميع «طقوس السحر» في التاريخ: أغوار هوية كل فرد تغوص في الطقوس الغامضة: للموت طقوس، لفقدان القوة طقوس، للقداسة طقوس، للسياسة طقوس، للولادة طقوس، للنضوج طقوس، للزواج طقوس، للكتابة طقوس. والطقوس نوع من أنواع الإيحاءات التي تشبه ناراً في الليل تنوّم الناظر فيها مغناطيسياً.

أنكيدو، في «ملحمة جلجامش»، ذلك الذي رضع لبان الحيوانات في البراري، وشعره طويل مثل إلهة القمح، الوحش البدائي هذا، فقد قوته حين ضاجع عاهرة مقدسة عند النبع البري، وصار «يعرف»، المعرفة «ضعف»، ولو صرت بها «مثل إله يا أنكيدو». وحلم في «أوروك» أنه مات.

رأى مجلس الآلهة في حلمه يقرر موته: ورؤية الضعف قد تكون ضعفاً: رأى آخرين يقررون مصيره، وهم آخرون يؤمن هو بأنهم الأقوى والأرهب. عند مدخل العالم السفلي، حيث سيحيا في العتمة ليأكل الغبار وخبزاً من الطين، سحره طائر الـ«زو» إلى طائر، مسختـه قوة عليـا، لأنه صار «ضعيفاً»، ودخل عالما فيه حتى خبزه انمسخ لطين وغبار.

وحتى الربة القمرية القديمة «أنانا»، كانت تدخل العالم السفلي بوابة بوابة، وعند كل بوابة، تنزع أشباح العالم السفلي شيئاً من «زينتها»: تاجها البدري، صولجان اللازورد، قلائدها، لباسها، وكلما سألت لماذا، قالت الأشباح: «لا تسألي يا أنانا، تلك طقوس العالم السفلي»، حتى تصل الأعماق الميتة عارية تماما ليس فقط من زينتها، بل من «هويتها السابقة» كلها.. هذه «طقوس الضعف»، حين تسيل القوة للخارج. والتسكع في بقع «سفلية» من هذا النوع، حيث أفقد في كل خطوة مَعْلَماً من معالمي، ذاك من علامات الخائفين، ومن انهارت إرادتهم وانسحبت كالحلزون الأحمر إلى داخل قوقعة مشكوك فيها. كنت أتخيلني ذئباً، أحيانا، ولكن بدل أن أهجم نحو نيران الرعاة، ليلاً، وأستبيح ما أستبيح، كنت أتخيلني واقفاً في الغروب، أمام شفق بعيد، على تلة، وأعوي في حزني. الحزن ضعف ولو صرت به شبه إله يا أنكيدو، والشعور بالذنب ضعف ولو صرت به قديساً يا أنكيدو، والشفقة على أي شيء وعلى نفسك ضعف ولو صرت بها مسيحاً. وها هو الآن ذلك الصوفي من قونية، يبشرني بطريق آخر: معرفة أنني أنا أيضا خطر، معرفة أخرى بطقوس مضادة، ورقص نقيض.

حدثني المخرج المسرحي، يعقوب إسماعيل، مرة عن طفل مجنون من رام الله، يحب البراري، سألوه لماذا لا تحب القرب من البيت والناس قال: «لا يريدونني أن أصير إلهاً مثلهم». وها هو ذلك الصوفي يزرع فيّ إرادة أخرى: تستطيع أنت أن تريد أن تكون إلهاً مثلهم، إرادتك أنت الأهم، وستكون، انتظر يا بنيّ، ستكون، أقسم بالذي مرج البحرين بينهما برزخ فهما لا يلتقيان ستكون حراً، يوما ما، بإرادتك أنت، ولا شيء آخر. هذه هي قسمة الآلهة للمحاربين: الغنائم.

سألت بري:

«هل ستعلمني معرفة أنني أنا، أيضاً، خطر؟ طقوسها يعني؟»

«كن محاربا هنديا أحمر»

«كيف؟»

«أي حيوان تحب؟»

«النمر»

«فليكن.. جاءني طائرك الأزرق في ذات ليلة، أتذكر؟ لا أريده! ابعث نمرك إليّ»

لم أفهم شيئاً. فارتجلت مساقا ما:

«متى؟»

«غداً، ليلاً، العاشرة بالضبط.. ابعثه.. هل تسمع؟».

كل حديثه كان غريباً. ولساعات وأنا أفكر كيف أبعث له «النمر» على الموعد، في العاشرة بالضبط. وأخيراً، في الليلة التالية، ذهبت لبيته بنفسي. وجدته ينتظر، مستعداً، ونهض عن مقعده وقال، كمن يعد لحملة عسكرية لاجتياح سور الصين العظيم:

«أهلا، جئت؟»

«نعم»

حسن على مدار اليوم



رفع رجله اليمين عن الأرض، بثقل، وبطءْ، وقوة، وكأنها من حديد أو حجر، ثم ضرب الأرض بها، وسمعت أزيز خشب ينوء وكأنه سيتكسر، وأخذ يهمر مثل نمر، وفهمت. قلّدت حركاته، ومشيت خلفه بنفس الطريقة وأنا أهمر، وأهمر. تخيلتني نمراً من النوع الـ«بنغالي»، يمشي في ممرات غابة، وتفر طيور عن الشجر خوفاً منه، وتزعق سعادين صغيرة صاعدة لأعلى الفروع، آلاف السعادين، من هذا النوع المعروف في الأمازون، وغزلان تقف شاردة وآذانها تصغي خائفة من حفيف خطاي. وقفت مطلاً على نبع ماء، ورأيت هناك قطيع نمور من بني جنسي، فنزلت لكي أتعرف على أهلي.

قعدنا نشرب الشاي لما قلت له:

«لما دعوتني لبيتك في المرة الأولى قلت إن لك معبداً، في زقاق مظلم وخلفي، فيه تقيم سيدة ما، تجعل نفسك ضمة ورد على بابها.. من أو ما هي؟»

«حيث يقيم قلبك، يخلق لك معبدا. في معبدي امرأة، وضعت قلبي عندها»

«من هي؟»

«كانت طالبة في الجامعة، ورفضتني يا رجل، لاحقتها سنتين بلا جدوى. سأرفع عليها قضية في المحكمة بتهمة التحرش الجنسي بي»، وفرط من الضحك، وفرطت أنا، أيضاً، فأكمل بلذة فائقة:

«يا رجل، لدي حس ذهبي بالفكاهة!»

«أعرف، أعرف. لكن ما اسمها، تلك السيدة؟؟»

«أماندا.. الألف ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا.. أماندا! الميم ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا.. أماندا! النون ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا.. أماندا! الدال ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا.. أماندا! والألف خاتمة النشيد ترقص فوق ظهر سفينتي وتغني أماندا .. أماندا!»

«هل كنت بحّاراً في زرقة البحر والزبد ذات يوم؟»

«نعم، لكن كما يقول المثل: لا يوجد شخص لا قيمة له إطلاقاً، ولو خدم كمثال سيئ، سأخدمها كمثال سيئ على من تعرفت عليهم في حياتها».

لم أستطع إلا أن أقهقه عالياً، وكدت أقع عن الكرسي.

«وكيف ترى إلى حياتك أنت حين تعرفت عليها؟»

«يا رجل، أحياناً فقط أنظر في أمر حياتي، وأقول: بري، إنها الشيء القديم نفسه الذي يسمونه الحياة».

وأطرق طويلا بمرارة، ثم هز رأسه وقال:

«سأكتب كتاباً عن حياتي يدعى (الرحلة الخطأ)»

«ولم لا تكتب؟»

«لأنني أعيش يا رجل».

خرجت من عنده بعد منتصف الليل، وتسكعت في شوارع خلفية مضاءة تتراقص فيها ظلال الشجر فوق سواد الإسفلت، غارقاً في قصة النمر هذه، والسيدة، حين توقفت قربي سيارة حمراء وفخمة، وغمرتني موسيقى «روك أند رول»، فوجئت، فأنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف أحداً من هذه الطبقة.

أطلت عليّ امرأة جميلة، بوجه صغير، وشعر أشقر منفوش وكبير، وقلائد من ذهب ترسم دوائر على النهدين يكاد ثقلها يكسر نحافة العنق. «تفضل يا عسل»، وهزت شعرها وابتسمت بلطف مبالغ فيه. «من أين تعرفينني؟». «لا أعرفك». «من أين أنت؟». «من بلفيو» (منطقة غنية جداً). شككت في الأمر، وهي تبتسم وتشير أن أدخل، صوتها فيه شيء غير طبيعي ما. فجأة خطرت في بالي فكرة أنها «رجل»، وأن الشعر «باروكة» ليس إلا.. لكن كان من شبه المستحيل أن أجزم. سألتها: «هل أنت طبيعية؟». «آه، يا عسل». «وهل تشعرين بالوحدة؟». «ومن ذا الذي لا يشعر بوحدة يا عسل؟». لولا ما حدث بعد هذه الحادثة لنسيتها تماماً، ولما تذكرتها طوال حياتي. التقيت ببري بعد يومين، صباحاً، في «المخرج الأخير». كان في جيب معطفه «المارينز» كتاب ممزق، حوافه محروقة وقديمة ومبتلة، ولا غلاف عليه. قعد يدخن ويشرب القهوة وأنا أتصفح الكتاب الذي بدا لخبير من خبراء التجميل في نيويورك، مهتم بعلم «السيبرنتيكس». يجادل بأن بعض الزبائن، مثلاً، يأتون إليه لإجراء عمليات جراحية تجميلية في أنوفهم، وأنوفهم جميلة جداً، ولا تحتاج أية جراحة. ولذا، توصل إلى أن جراحة التجميل لا تستطيع الاكتفاء بالمشارط والتشريح والمحاليل الكيماوية، يجب أن «تفهم» الذهن الذي «يتخيل» أن الأنف بحاجة لعملية تجميل. وشرد ذهني إلى ذلك اللوطي في السيارة الحمراء. وتحديداً إلى سؤال واحد: المدى الذي يستطيع فيه ذكر ما أن يذهب في «تخيل» أنه امرأة. كنت رأيت كثيراً جداً من هذا النوع في الولايات المتحدة: رجالاً غيّروا شعرهم، ولباسهم، وحركاتهم، وطريقة كلامهم، وفرضوا على أنفسهم برامج نحافة قاسية، وفعلوا كل شيء ليصبحوا نساء، ومن المستحيل تقريباً تمييزهم عن النساء، ومنهم من قاموا حتى بعمليات جراحية لتغيير «جنسهم» كله. يتخيل هؤلاء «جسداً ذهنياً» آخر لهم، أنثوياً، ويقومون بكل شيء ممكن لإعادة صياغة جسمهم الفيزيائي كي يصبح على صورة جسمهم الذهني.

كنت أيامها أبحث في الجامعة مسألة الانتحار في الدراما والرواية، كجزء من بداية اهتمامي بـ«كيف يشتغل الذهن المبدع»، أو «أنظمة الذهن في التاريخ»، فربطت الفكرتين معاً. الذهن الانتحاري يختلف عن اللوطي في كونه يشبه «قنبلة موقوتة»: وضع فيه مهندسه «أمراً» ما بأن يفجر نفسه في لحظة معينة. أما اللوطي، فيعيد تصميم جسمه الفيزيائي بدل أن يفجره. وخطرت في بالي فكرة ستقلب كل حياتي: الذهن له «تصميم» معين، ككل كيان آخر في الكون، وهو كيان قادر على أن يعيد تصميم نفسه وعالمه.

رميت الكتاب وسألت بري:

«ما هو الذهن؟»

«مسجل. كل ما يمر معك وفيك يسجّل فيه»

«ولكنه ليس سلبياً، الأطفال يبنون بيوتاً بالرمل ويهدمونها، أيضاً»

«نعم يا رجل، يمكن أن ترى الذهن ككيان يتكيف».

شردت في أقواله زمناً، ثم قلت:

«أعتقد أنه، أيضاً كيان يتسع. لنفترض أن البابليين تعلموا شيئا جديداً من بناء برج بابل، وذهنهم «سجل» هذه المعلومة الجديدة، أو لا يعني ذلك، أيضاً، أنه توسع، صار أكبر؟ هيراقليطس قال إن اللوغوس خزان يتسع».

كنت مستثاراً، وأبحث عن كلمة أعمق من «يكتشف»، أو «يتسع» أو «يتكيف»، أو «يسجل». وعثرت عليها: «يخلق». أعمق حاجات الإنسان هي أن يخلق. وتذكرت جملة أعتقد أنني قرأتها في كتابات حكماء الشرق المقدسة: الذهن المتنور كالشمعة تنقل نورها لأية شمعة أخرى وليس ينقص رغم ذلك نورها.

لم أر إلهاماً في شمعة «تنقل» فقط نورها لغيرها. الذهن الذي «ينقل» أو «يحفظ» يصاب بالشلل إن فقد ماهيته: أن يخلق، ويصير. وأزمة الذهن العربي أنه فقد هذا بالضبط: قدرته على الخلق. لا أعني فقط قدرته على «خلق عالمه»، وتصميم «الدنيا التي يحيا فيها»، بل، وهذا أهم، قدرته على تصميم نفسه، على «إعادة الصياغة»، على أن يكون عنده جديد كل ليلة، وكل ذهن فقد قدرته على تصميم نفسه سيقوم غيره بتصميمه. سميت القدرة على إعادة تصميم النفس «الهندسة العليا»: وكتبت عن هذه الهندسة مطلع قصيدة «جاز شرقي»:

«بيدي رميت حبيبتي للمدّ فانحسرت مع الماضي يدايْ
صارعت في الغابات أنواع نمور جرحتني جروحاً، ولما بقيت
وحدي داست عليّ خطايْ
ما كنت أرعى الإوزّ وماعزكمْ
في جبال لكمْ
ما كنت نايْ
كنت «الفراغ» الذي في داخل الناي، من غيره لا تقدرون على الغنا أينه؟
أينكم؟
إن هندستي أن أصمم نفسي وصمتي غنايْ».

ليلتها، تسكعت طويلا في الغابة، وعاودتني رؤيا النسر: سماء زرقاء أنا تحتها نسر رمادي يحلق عالياً، ويطير مائلا، بسرعة فائقة، ويرى كل جغرافيا ذاكرتي، جغرافيا سأعيد صياغتها كلها، ورآني النسر هنا، في ممرات الغابة، وحدّقنا في بعضنا قليلاً، وبدا وكأنه يتأملني، ثم واصل طيرانه، نحو ما لم أكنه بعد: فنانا في إعادة تصميم نفسي.

كنت أيامها أقرأ، للمرة العاشرة، ربما، كتاب «رأس المال» لماركس. وذهبت إلى بيت بري ليلاً، ولاحظ الكتاب معي فقال، وكنا قاعدين في الصالون، «يا رجل! الحياة ليست تركيبا منطقيا ألمانيا. أقسم بالله سأكتب يوما ما كتابا عما تفعله الطوائف بالعقول»

«هل قرأت ماركس؟»

«نعم»

«ما رأيك فيه؟»

«ليس فيه يا رجل، فالمعرفة لا شخصية»

«حسنا.. فيما كتبه؟»

«كتب ألغازاً يا رجل! درستها لأربع سنوات»

«هل فككت ألغازه؟»

«تعلمت منه شيئا: ألا أفقد «حسي» العادي بالأشياء وفي العوالم الغريبة التي تسري روحي فيها، هذا نافع، أعني لا تفقد يا حسين حسّك العادي بالدنيا»

«وما هذه العوالم الغريبة التي تسري فيها؟ أي، أين أنت الآن؟»

«لا جدوى مما لا حدس عندك بوجوده»

«أعني كيف يبدو لك عالمي؟»

«لا أعرف عنك شيئاً. فعمق البحر لا يعرف شيئا عن شواطئه.. وجهك شاطئ».

هزتني جملة «وجهك شاطئ». تخيلتني في مكانه، في «عمق البحر»، وأنظر نحو الشاطئ: وجهي. وصعقتني فكرة أخرى: كانت تبدأ مطاردة البحر لي في حلمي في بيروت، وأنا طفل صغير جالس على حجر في رمال الشاطئ عارياً، وملابسي بيدي، وأحدّق في البحر مذهولا وخائفاً. كنت أرى البحر

بعيني الطفل دائماً، ولا مرّة جربت فيها أن أرى الطفل بعيون البحر. كنت أرى البحر «رائعاً»، وأرى زرقته، موجه، انفصام شخصيته، رماله، استداراته، وأراه يطاردني، ولكن، لم أر أبدا كيف «كان البحر يراني». و«وجهك شاطئ» جعلتني أرى الطفل بعين البحر.

تخيّلتني بحراً: في أقاصيّ ضباب أزرق واسع فيه قوارب ضائعة، وموج يترامى مثل خيول من الزبد، بروعة يترامى، وفي كل الجهات، ولكن الصياغة كلّها حمقاء: كيف يقنع بحر بهذه العظمة والقوة نفسه بمطاردة طفل يحلم، أصغر من دمية بنت حمراء على شاطئه، منكمش، عار، وملابسه بيديه الصغيرتين ويخشى الموت غرقاً، كيف تقنع نفسها قوة الكون العظمى بمطاردته؟ بدأت أدخل في شبه غيبوبة، كمن نوّم نفسه مغناطيسياً. وقلت:

«بري.. لسنين، كان البحر يطاردني، وكان وجهي شاطئاً»

قال: «اسبر نواياه»

إنني أسبرها: فأنا الآن أحدّق في نفسي بعين البحر. اختفى جسدي الفيزيائي وصار البحر لي جسداً، وأسري فيه روحاً في مدى. لست سمكة في البحر الآن أنا البحر، بري!

قال : «اسبر نواياه!».

وفجأة، بدأتُ أرتفع، الزرقة تنتفخ وترتفع، رويداً رويداً، وتغضب، ويعلو موجي في العمق، ويأتي من بطني، وأغواري، وكأني بطن أنثى حملت بقطيع أفاع، وشرور، وينهار فيّ الموج، لينتفخ البطن أكثر، وترتفع الزرقة: قد بدأ الفيضان وبيروت دمية!

قال: «اسبر نواياه، حسين، اسبر نواياه».

كل هذا الغضب المكبوح، الفيضان، الرغبة في تدمير الدنيا، الجنون، أنا وسطي لم يزل أزرق، مشمساً، واسعاً، كل هذا السطح أنا تحت سطحي من الشرور ما يجعل أمي تتمنى لو لم تكن قد ولدتني، أفتعرف ما معنى المنفى، بري، أفتعرف ما معنى المنفى؟ هذا الطفل الهشّ الصغير، الدمية الحمراء، في بطنه بحر! وفيضانات مكبوحة!

قال: «اسبر نوايا الطفل، حسين، اسبر نواياه!».

يغريه البحر أن يلتقي بنفسه، بغضبه الذي سنّته عليه الالهة والشياطين والقرون الماضية، كيف يقنع بحر نفسه بمطاردة طفل يا بري؟ وإلى أي مدى كان يحتاج الأمان، إلهي! كم كان يلزم من القوة كي ينهش الناس قلبه، كي يخلقوا بحراً كاملاً من الغضب في بطن طفل؟ لقد اغتصبوني حتى وصلوا قلبي يا بري، أنت من قلت لي عنك: اغتصبوني حتى وصلوا قلبي، وأنا أخوك!.

كنت أبكي وأبكي، ولم أعد أذكر بعد هذه اللحظة ماذا حدث. كنت أخرج من نوبة بكاء لأخرى.

قال: «دموعك آخر شكل للفيضانات: الآن البحر يرشح منك على هيئة دمع».

ونهض وأخذ يغني ويصفق ويهتف وهو يدور حولي: «تعارف طفل الجبل الذي فيك والبحر الذي فيك، وصرتما واحداً، واتسعتَ، فطوبى لمن يتسعون».

وأدركت أن خوفي من أن تنفصم شخصيتي وتقوم شخصيتي الثانية باقتراف جريمة لا تعرف عنها شخصيتي الأولى، ليس إلا حدساً بالبحر الذي في بطني، والموج الذي ذابت فيه كالملح كل غرائز التدمير التي خلقها الله أو عبيده فيّ وأنا طفل، «شخصيتي الأخرى» هي هذا البحر نفسه. كنت أخشى الفصام لأنني كنت منفصماً أصلاً! كان البحر يطاردني لأنه أعمق وأصدق وأوسع شكل عرفه غضبي، ونواياه تدمير العالم كله.

طفل الجبل على شاطئ البحر شمعة صغيرة مضيئة في الليل يا بري: إنها حاجة البحر للأمان. والبحر رغبة الشمعة في تحويل الكون إلى حطب وبدء الحريق الأعظم. والنتيجة طفل فيه هوج البحر وبحر فيه قلق الطفل. بدأت أرى الجنون، ويحل لمن يرى عمقا كهذا أن يعيد صياغة نفسه.

والغضب أبيض

ولها وردتها

تلك السيدة

فلنعطها الكون!.

كنت بئراً، ويحق لها، تلك البئر، أن تصبح الآن سُلّماً.

ولنعطها الكون.

وسألت بري وأنا لم أزل أفيض كالبحر:

«ما هو الجنون؟»

«ألا تدرك نواياك من حيث إنها نوايا».

قلت:

«لم أفهم. كان يطاردني بحر بيروت في حلمي، لسنين يا رجل، دعني أفهم هذا»

«عقلي سكين من الذهب صارت حافية وأنا أحاول أن أجعلك ترى نفسك!»

«ولكنك تتكلم ألغازاً! ماذا يعني أن أدرك نواياي من حيث إنها نوايا؟»

«يعني أن غضبك على الدنيا، غرائز التدمير فيك، خوفك من الموت غرقاً، حاجتك للأمان، ليست إلا نوايا قلبك. ولكن عقلك لا يعرف ولا يفهم هذه النوايا، هذا الذي تسميه «عقلك» لا يفقه شيئاً. قلبك عصر نفسه مثل ثمرة كبيرة ومُرّة ، كل مرارته في الدنيا عصرها في البحر، وذابت فيه كالملح، صار مذاق البحر مُرّاً جداً. وهذا هو الفيضان: يحاول قلبك أن يأتي إليك ، ويذيقك ثمرته السوداء، يريدك أن تشعر به، ويلاحقك ليعطيك البحر، ليقول لك: هذا المذاق المالح وهذه المرارة هي شعوري بالحياة، وخلاصة عمرك!»

«وما الجنون؟»

«قلبك يأتي إليك متنكراً في هيئة بحر، فتعتقد أن قلبك هو بحر بيروت. هناك بحران: بحر بيروت وبحر قلبك. الأول حقيقي، والثاني بحر نواياك. وأنت تجهل الفرق بين البحرين، وهذا جهل بنواياك من حيث إنها نوايا، جنون يا رجل!»

«وما الضمانة ضد الجنون؟».

أطرق طويلا، وهو يلف لفافة تبغ ويبصق الفتات، وحلّ أثقل صمت في حياتي، ثم قال: «الضمانة ضد الجنون ألا تنوي أبداً».

بدأت أذرع صالون بيته جيئة وذهابا، وأبكي، وأتمتم، وأبكي: «هذا لا يصدق! لا يصدق! ببساطة، لا يصدق!». كنت أرى، حرفيا، البحر في بطني: أعماق زرقاء جدا تمتد إلى.. لا أقدر على تخيل النهاية: البحر يبدأ من بطني وينتهي، ربما، في سواحل إيطاليا، ولا أقدر على «حمل» بطن بهذا الاتساع، والزرقة لون نواياي؟

والطفل شمعةٌ

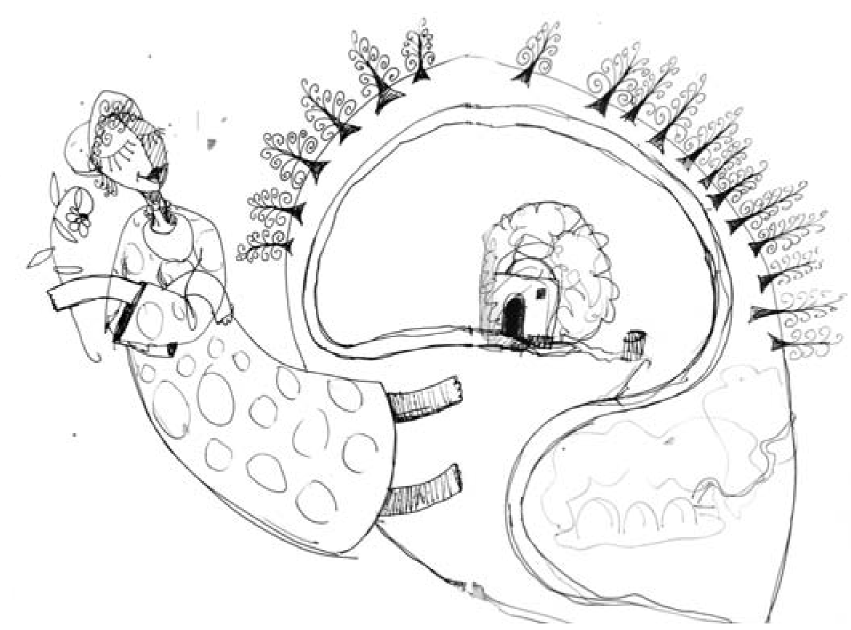
كيف يحتاج الأمانْ!

والبحر دمعةٌ

حدها الشطآن!

ولنعطها الوردةْ

لها كل المكانْ



الفصل الثالث

التقيت مرة بفتاة تدعى ماري، من تربية رهبان ال«جزويت»، فيلسوفة تكتب قصصا قصيرة رائعة، ولم تنشر شيئا. قالت: «أنا كاتبة مشهورة غير معروفة»، كنا نجلس في شباك غرفتها، ليلا، مطلين على هدير المحيط. قالت: «حسين، إن شخصا لا يعطيني معرفة، ويوسع مداركي، ولا يأخذ مني معرفة ويوسع مداركه، شخص لا حاجة لي به». وأخذت تهزّ جسمها في كرسي قش وتحدق في هدير المحيط، وأكملت: «كان لي صديق ياباني يجلس هنا ويتمتم: فلنركز، فلنركز، فلنركز!».

فتاة غريبة، شقراء، تركتها وهي تتدرب مع الهنود الحمر على أن تكون ساحرة، وترقص للقمر. وأنا بحاجة إليك، وسأرقص معك للقمر عند الضرورة.

أنا إنسان بسيط جدا يساء دائما فهمه، ولهذا كنت دائما على الهامش، هامش الحياة، والكلام، ولا أريدك أن تسيء فهمي أنت أيضا.

منذ الطفولة، كنت أمشي في البراري، وأنا أحمل أنبوبة برتقالية من خشب تدعى «قلما»، وأتمتم: «قلم! قلم! قلم!»، ولا أرى صلة بين هذه الكلمة وبين تلك الأنبوبة. وبدت لي «الكلمات» كلها وجودا سحريا، روحا مائعة هائمة فوق الأشياء، مثل روح الرب فوق الماء. وحتى عندما سمعت بكلمة «بريطانيا»، لأول مرة، في بيروت، في مجلة عسكرية أعطانيها رجل من طرابلس، سحرتني موسيقى الأحرف: بريطانيا!، سحرتني الأحرف، وبالذات «الياء» و«الألف»، وسحرني أكثر أن لا معنى أبدا لكل الكلمة، عندي، أيامها. كانت وكأنها تبرهن أن لا وجود لأية صلة بين أية كلمة وأي شيء. أحببت الكلمات المغلقة، التي من هذا النوع، وحفظت الكثير من الأسماء الأجنبية مثل «بريطانيا»، و«سينما كارمن»، لأنها مغلقة. طورت ذاكرة خاصة لكل ما هو «أعجمي»، ومغلق في الروح.

وكنت أمشي، في جبال رام الله، نحو الينابيع، في زرقة سماء الصيف، وغبار الظهيرة، فأكتب اسمي «حسين» في الزرقة، بأصابعي، ثم أبتعد مسافة ما، وأنظر نحوه من بعيد، فيبدو لي، أحيانا، مائلا، مثل لوحة على جدار، فأعود إليه وأعدله، أحيانا، أو أعدل البقعة الزرقاء نفسها، أحيانا، أو أتركه مختل التوازن، هكذا، وأمضي. أمشي وأهمس بأحرف اسمي لنفسي، كأنني كنت أعرف قول شيخ الصوفية محيي الدين بن عربي أن الأحرف أمم: وبكل حرف نستحضر أمة من أمم الجن، كنت أسمع صفير جن في الحاء والسين والياء والنون. حيرتني الكلمات، هذه البلورات الزجاجية من هواء ملون.

ولاحظ أقاربي الطفل الذي يكتب في الزرقة بإصبعه، ويكلم نفسه، فلقبوني بـ«أهبل» و«فرخ أهبل». السلطة السحرية التي يمارسها الاسم على المسمى فظيعة. ليست المسألة أن هناك «شيئا» أو «شخصا» يسميه أقاربي «الأهبل»، لا! بالعكس، يتم خلق شخص «أهبل» في داخل حسين الحقيقي، هوية بلهاء، يوحون لي بأنني «أهبل»، فأصير كما يوحون لي. الأهبل موجود في داخل الكلمة نفسها، ويدخل إلى «أذنيّ»، ومن هناك يسري إلى قلبي، ويستيقظ فيّ جسد ذهني دخيل، بعثه دخلاء على عالمي. سحر أسود؟ ربما، ربما. فقط حديثا بدأت ببحث معنى هذه الكلمة المغلقة: «أهبل»:

ليست عربية، أصلا، بل مشتقة من اسم إله القمر، قبل الإسلام، «هبل»، ومن معانيها في الآرامية «الدخان». وبدا وكأن الدخان القمري أبي، نعم، أبي الحقيقي. لم يعد حسين هذا ابنا للأرض ولا منها، ولا حتى ابنا لأبيه، ولا أتكلم الآن كي أوزع الاتهامات على أحد، بل لأفسر كيف ولد «حسين الغريب»، الأشبه بمجمع بلهاء وغرباء، ولديهم، رغم ذلك، حكمتهم.

صرت في كل عيد، من أول الصبح، أتسلل للتسكع في الجبال، حتى يهبط الليل، كي لا أرى أحدا، وأحلم، إن صادفني الناس، بـ«طاقية إخفاء»، إن لبستها لا يراني أحد، ولا يسمعني أحد، لكنني أرى الجميع، جالسا في الزاوية الأبعد في كهوفهم، تحت الإضاءة الصفراء والحمراء لمصباح «كاز»، خفيا، كروح، وأسمع، وأرى، وأشعر، وأشم حتى عرق زوجاتهم، ولكنني فضلت أن أدفن نفسي في «طاقية» على أن أكون بصحبتهم. سحر أسود؟ ربما، ربما. أفهمني جيدا. «طاقية الإخفاء» حلم الجبناء. وربما كنت جبانا، ولم لا؟ لا أخجل من ذلك، من منا ليس جبانا لهذا السبب أو ذاك؟ وماذا كان باستطاعة طفل أن يفعل لحماية نفسه أمام من هم أكبر سنا وقوة منه، غير أن يكون جبانا؟ صرت «آخر»، لم أعد أنا أنا، ولا هم هم، ولا هن هن، ولا معنى لـ«نحن»، أبدا.

«أعتقد أنك تشعر بالنقص».

«أشعر بالنقص ليس أمام الناس، بل أمام الصحراء».

«واو! واو! يا رجل!».

ولقبوني بـ«سطل»، اسم آخر لهوية بلهاء أخرى، خبراء النهش لا حد لقدرتهم على الاختراع. سحرة، ولم يكن لحسين الصغير عصا النبي موسى كي يلقي بعصاه فإذا بها حية تسعى وتلتهم حيّاتهم. حدث هذا، أعني اللقب الجديد، فهو «حدث»، كما ترى، حين عاد أبي من بيروت لزيارتنا، وأتى أقاربي للسلام عليه، وكان بينهم إمام أعمى، يحفظ شعر العرب، ويعتبره أبي مثال الحكمة، ويشم «سعوطا»، من علبة معدنية بنية يحملها دائما في جيبه، وترك «السعوط» على شاربه صبغة صفراء أميل للحمرة، وكان بينهم، وكان «أحكمهم»، و«إمامهم»، وسأله أبي عن رأيه فيّ. حرك رأسه يمنة ويسرة، وقال: «يا بو حسين! ابنك سطل!». كنت طفلا، وحدقت في مدى ثقته بما يقوله، كان مؤمنا ببلاهتي أكثر مما آمن موسى عليه السلام بالله لما كلمه الله من جانب الطور الأيمن. سطل! أي «أهبل». نقطة. ولا أي برهان أو جدل يكفي لإزاحة ذرة من هذا العلم «اللدنّي».

وأبي كان «إله صمت»، مغلقا على نفسه، ككل أب فلسطيني في ذلك الزمن. كتم غيظه من هذا «السطل»، حتى منتصف الليل، فأيقظني من نومي، وقال: «اذهب للعين، واسق البغلة!».

كانت عندنا بغلة عسلية اللون، ضخمة الهيكل، مربوطة في «مخزن» بباب حديد. سحبتها من رسنها خائفا، شبه نائم، حافيا، ومشيت في الجبال، في طرق برية مقمرة صامتة، بعيدة عن أي إنس، وعن بيتنا، وكنت أسمع موسيقى ترن في الصمت المطبق للخلاء، والبراري، كأجراس في يد جنية أو غول على فروع زيتون قريب، جامد، تحته ظلال يسري فيها حدس بجنون العالم. وقفت خائفا أمام حوض ماء قرب صخرة كبيرة، والبغلة تشرب، حينا أداري خوفي بالنظر إلى ظلال الزيتون المقمرة، وحينا بالنظر في عيونها الكبيرة وفي رموشها، وأسمع غيبا في «بقبقة الماء».

وتذكرت حكاية «جبينة»، البيضاء كالجبن، التي صعدت إلى «شجرة دوم»، لتلتقط الدوم وترميه إلى صاحبات أخريات لكي يضعنه في كيس من جلد، لكنهن يحسدنها على جمالها، ويردن بها سوءا، فجمعن عقارب، وجرادا، وخنافس، وحجارة في كيسها، ثم تركنها منهمكة في تلقيط الدوم ورجعن إلى البيت، وظلت جبينة على الشجرة. وصعد القمر، وجاء غول فوقف في ظل الدومة و«شمشم» حوله ثلاثا، وقال: «رائحة إنس على دومتي»، ورأى «جبينة» فوق، فقال لها «سيدي بو القرنين»، أن تقفز على قرنيه. فقفزت على القرن اليسار، وفكر في أكلها، ثم غير رأيه وأخذها إلى بلاده، لترعى أغنامه في جبال الشوك، وتغني وحدها:

«يا طيور طايرة عالجبال العالية
قولي لأمي وأبوي
جبينة راعية.
ترعى ورّ
وتمشي غزّ
وتقيِّل تحت الداليةْ».

وتخيلت أن الغول سيأتي الآن ليقبض عليّ، سيشم رائحة «طفل إنس» قرب مائه. وبدأت أتخيل الغول قرب العين: سوف يحرسني الله، يحرسني الله!. وماذا لو كان الله قد خلق الكون، ونسي أن يخلقني أنا وحدي، فرخ الأهبل هذا، هل كان يهم الله لو نسي خلقه؟ وتلبستني أسئلة لا حل لها في تلك الليلة: ماذا لو كان الله قد نسي خلق الكون بأكمله؟ وماذا لو خلقني الله في الكون وحدي فقط؟ ثم هبط أثقل الأسئلة: وماذا لو لم يكن الله موجودا؟ وسألت أبي والإمام، وزادت قناعة البقية بأنني «أهبل»، و«فرخ أهبل»، و«هب الهوا يا أهبل»، و«سطل». لم أعد أريد أن أسمع أغنية من هذا النوع، فسموني «الأطرش». كان أبي ثقيل السمع، بعد كبره بالأخص، وكانت السخرية تتركز عليّ وعليه. «أطرش»، أي عالم الصوت ليس لي، تشردت منه. صرت أقرب إلى القمر: محض عين من دخان. بكلام أوضح، قاد هذا لتدمير حاسة السمع عندي.

«واو! واو! الكلمات سحر يا رجل. والعشيرة مربوطة معاً بالقلب، ولما تنحل روابط قلبها تتفكك، وقلبك دفع ثمن تفككها!».

«وأنت؟».

«أنا فردي يا رجل، لا أصل ولا فصل لي».

صحيح. العشيرة مربوطة معا برابطة القلب، وكنت خارج «الرابطة». وصرت أفقد إدراكي من فينة إلى فينة، نعم أفقد إدراكي. مرة، في بيت رجل من عشيرتنا، كان الكل يضحك عليّ،

حدقت في وجوههم، لم أر إلا أفواها مفتوحة، غريبة، تشبه كهوفا مدهونة بالأحمر، كهوفا من لحم معمارها غريب. والكلمات – كانوا يتكلمون ويقاطعون بعضهم – تحللت إلى سيل من أصوات لا معنى لها، تشبه لغة أجنبية عليّ. خرجت، لم أعرف الطريق، ولا البيوت، ولا الشجر.

«هذا هو المغناطيس الداخلي. عندما ينجذب صدأ الإدراك نحو المغناطيس الداخلي لا تتعرف على خارجك!».

في آخر سنة في المدرسة الثانوية، سموني «العبقري»، بكل جدية، من فرخ أهبل إلى عبقري، من دون تمهيد.

كانت المفاجأة أنني كتبت قصيدة لمسابقة شعرية بين مدارس منطقة رام الله، ولم يصدق أحد أنني كاتبها، ولا حتى أساتذة أدب في «كلية بيرزيت»، أو في لجنة التحكيم، ولا حتى معلمي نفسه، واتهمت بسرقتها من «شاعر كبير» ما.

وعقدوا لي محاكمة في المدرسة، وشاع الخبر، فسميت «العبقري»، ليس المهم أنني كنت فرخ أهبل أو أطرش، أو عبقريا، بل كوني دائما خارج السياق، لا أنتمي إلى أحد، شاذا، وغريبا، وعلى هامش الدنيا. «عبقري»، ودون مقدمات. أفهمني جيدا، هذه كلمة ولا أي دليل على أي حسن نية فيها، في تاريخي أنا، على الأقل، وفي تاريخها هي، ككلمة.

كانت العرب قبل الإسلام تؤمن بكائنات لا ترى، مستورة، «جنس تتنقل بغمزة عين من مكان إلى آخر، وبعضها يقيم في «وادي عبقر»، مكان لا تحديد لمكانه، أي لا مكان. واعتقدت العرب أن جن هذا الوادي هي التي تملي الشعر على أي شاعر، فسمي الشاعر «عبقريا»، أي على صلة خفية وغامضة بوادي عبقر، بكائنات مستورة. وذكر القرآن الكريم هذا الوادي عندما قال إن الشعراء «في كل واد يهيمون». وتسميتي «العبقريّ» وضعتني على هذه الحافة بين الإنس والجن، بين العقل والجنون، لم تكن الكلمة اعترافاً بي، بل إقصاء أبعد لـ«فرخ الأهبل» هذا إلى البراري الأكثر غرابة.

وبدأت أحذف «أصوات الإنس» من عالمي. وماذا كان بإمكان طفل مثلي أن يفعل؟ كان حبي كله منصبا على الجبال، و«الأشياء»، ليس على الناس، كنت أستألف البراري، وأحادث الحجارة، والسنابل، والطيور، وكل ما يقع في طريقي. مرة عقدت محاكمة بين سنبلتي قمح، مثلا، وحكمت على واحدة بأن تذبل. وكنت ألعب في فيء الزيتون، مع «عرائس من حجر»، وصادقت عصفورا، وكلبا. وأخيرا، عثرت على أصدقاء السفر: الكلمات! انهمكت في الكتب، من ألف ليلة وليلة إلى المعلقات، وصادقتني الكلمات كلها، والأشياء، ولكن ليس الناس. والكلمات «مصاعد»، بالمناسبة، كل كلمة «مصعد».

رأيت أول «مصعد» في حياتي في بيروت، في ستينيات القرن الماضي. كنا نسكن في بناية ذات مدخل جميل مزين بالجبس والرخام، فيه مصعد ذهبي اللون، فيه مرآة ولوحة أزرار، واعتقدت أنه خزانة سحرية جميلة. رأيت امرأة كبيرة في أصابعها خواتم من ذهب، تسكن في الطابق الرابع، اسمها «أم مارون»، تدخل الخزانة، وتغلقها وراءها، ثم تصعد. وبقيت وحدي في المدخل الرخامي، واحترت أين ذهبت «أم مارون». ضغطت على الزر، ورجعت الخزانة ثانية، وفتحتها: أم مارون اختفت، ولا أثر لها.. لم أجدها.. ذهلت.. وصرت أعتقد أن من يدخل الخزانة الذهبية يختفي، ببساطة.

مرة أتت بنت مسيحية صغيرة كانت لطيفة جدا معي، ودخلت في الخزانة، وهي تضحك. وكعادتي، ضغطت على «الزر» بعد قليل، فرجع المصعد، وفتحته، فوجدت أمامي شيخا عجوزا أشيب الشعر، يحمل سلة قش فيها كلب صغير أبيض، وخطر في بالي أن الخزانة الذهبية «تقلب» البنت رجلا، والرجل امرأة، والطفل شيخا. ومن العبث معارضة من يدخل الخزانة، فهو يريد أن ينمسخ لكائن آخر أو يختفي لمدة.

صرت أجلس أمامها وأراقب الداخلين والخارجين، وأفتح



لهم الباب، متعجبا من لعبة الانمساخ هذه. تخيل مدى ذهولي عندما فتحت الباب ذات يوم فخرجت «أم مارون» نفسها، بخواتم الذهب في أصابعها، وكأنها انمسخت لمدة ثم عادت إلى هيئتها الأولى، ولم أعد أفهم ما يحدث.

كنت أفتح باب المصعد لـ«الكبار»، سكان الطوابق العليا، ومنهم تاجر ذهب من الطائفة المارونية، وموظف في وزارة الخارجية من طرابلس، وكاتب فلسطيني شهير يدعى غسان كنفاني، وكان صديقا لأبي، وهكذا.

أفتحه لأرى من سيخرج هذه المرة من الخزانة، وأفتح الباب لكل من يريد أن ينمسخ أو يختفي أو.. وحسبوا أن «سر» فتحي للباب يكمن في رغبتي في «خدمتهم»، وصاروا، مقابل فتح الباب يعطونني «بخشيشا» أو «إكرامية»، كنت كأنني تطوعت في «خدمة» قوى السحر والشعوذة، وحصلت على «بخشيش» منها.

وقررت أن أدخل الخزانة، مثلهم، وأنمسخ إلى بنت أو رجل عجوز أو موظف في وزارة الخارجية من طرابلس، أو إلى أي «كائن آخر». دخلت الخزانة، وأغلقت بابها، ووقفت حائرا أحدق في المرآة والسقف المذهب، وبساط ملون بزهور برتقالية وصفراء فوق المصطبة، وأنتظر أن تبدأ المعجزة. ولم يحدث شيء. لفت نظري عمود معدني ذهبي اللون معلق أفقيا فيها، وتعلقت به، وأخذت أتأرجح في الهواء، وفجأة، صعدت الخزانة بي، نزلت عن العمود، فتوقفت الخزانة بين طابقين، ورأيت أمامي شبكا أسود من الخشب خلفه جدار من الإسمنت مدهون بلون أصفر كالح، ولا أية قوة تستطيع زحزحته، حاولت دفعه ليفتح، ولكن عبثا، وأنا ممن يخافون الأمكنة المغلقة والضيقة، دفعت الجدار ثانية بيدي الصغيرتين، ولكن عبثا، وشعرت برعب من المكان، وكدت أصرخ كحيوان بري من الخوف. مرت مدة وأنا أدفع الجدار، ثم تعلقت كسعدان بالعمود الذهبي، ثانية، وانتظرت ماذا سيحدث.

قاعدة المصعد مركبة على زنبركات، وحين يقف عليها أي شخص تهبط نحو الأسفل، بسبب وزنه، ولا تتحرك الخزانة عندها إلا عندما يضغط الشخص على زر في لوحة الأزرار قرب المرآة، وعندما تعلقت بالعمود الذهبي ارتفعت القاعدة ثانية، وفجأة صعدت الخزانة بي وحدها، ونجوت.

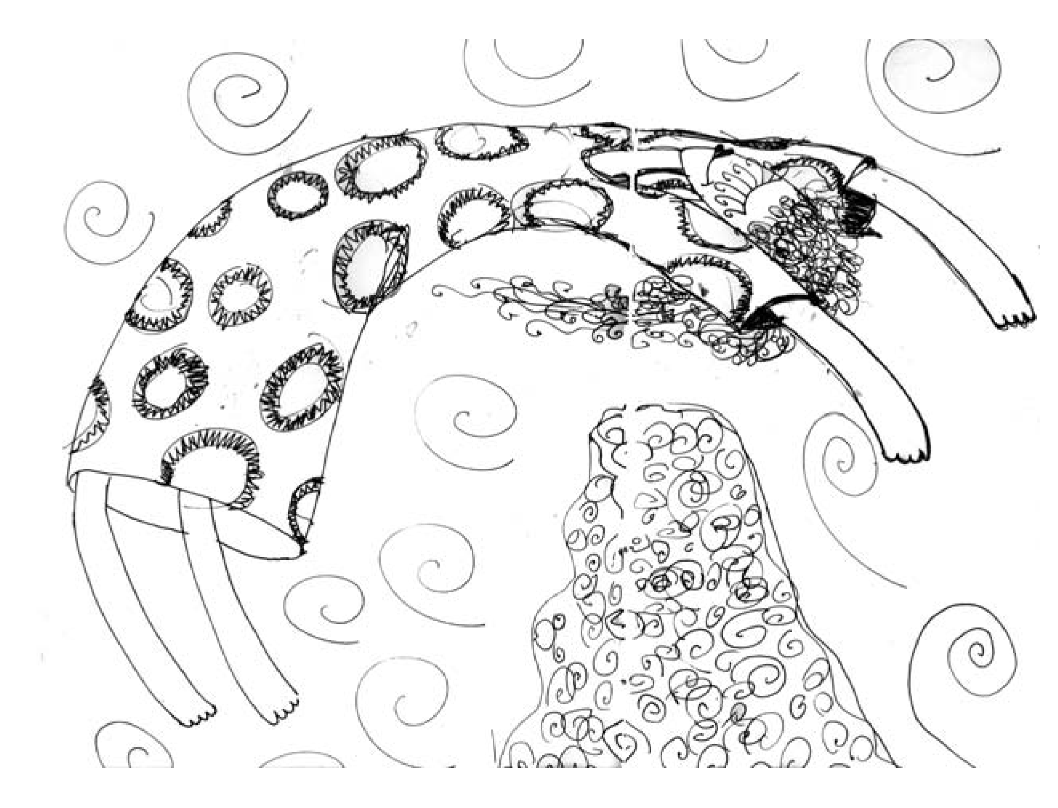
صرت أدخل الخزانة وأتعلق بالعمود، وتصعد بي أو تهبط نحو أي شخص يضغط الزر، وكانت لحظة نشوة عندي أن يفتح الزبون الباب فيجدني فيها، وكأنني أخرج له من أكمام ساحر.

الخزانة مربوطة بحبال فولاذ تجرها نزولا وصعودا، حبال ملفوفة على دولاب ضخم مربوط بموتور كهربائي في غرفة على سطح البناية. سرقت مفتاح السطوح، وتسللت إلى غرفة المصعد هذه، وبدأت ألعب بأزرار الكهرباء هناك، فاكتشفت أن تعطيل زر معين يقطع الكهرباء عن الخزانة الذهبية، فتتوقف حالا. صرت أوقفها متى شئت، و«أسجن» فيها من أشاء، وكان الكل يعتقد أن الكهرباء انقطعت تلقائيا، وليس مني، ولكيلا يكتشفني أحد، لا أعيد الكهرباء، بل أسحب الدولاب بيدي، وأرفع المصعد حتى يصل أقرب باب، ثم أنزل بأقصى سرعة لأرى من «هو السجين» فيه، وأقول له أنني من «أنقذه»، فأحصل على «بخشيش»، عدة ليرات، في كل مرة.

تحول «سجن الآخرين» إلى مصدر دخل لي، وكنت أخبئ كل «ميزانيتي الصغيرة» هذه عن أبي، ومنها أنفق على الذهاب إلى سينما كارمن، ليلا، دون أية «مساعدة» منه، أو على البلياردو، أو على شراء إبريق بلاستيك أحمر وصغير لأمي. وفتش أبي كل البيت عن «ميزانيتي» ولم يجدها. كنت أخبئها تحت السجادة الملونة المفروشة على مصطبة المصعد، تحت «أقدام الجميع»، فقد قدرت أن سكان الطوابق العليا، كما سميتهم، أغنياء جدا، ولن يتنازل أي منهم للبحث «تحت قدميه» عن «كنزي».

كنت منهمكا في عالم من هذا النوع حين سمعت أطفال «الطوابق العليا» يتحدثون همسا عن «الفلسطيني»، ويشيرون إليّ، ويتغامزون، هذا لقب لم أسمع به من قبل، أغرب لقب سمعته، وكان «أجنبيا» عليّ، كلمة مغلقة أخرى لا معنى لها أبدا – لاحقا فهمت أنه جاء من اسم قبيلة من عبدة النار –، وشكل هؤلاء «عصابة» ضدي، التسميات غريبة، بمجرد أن يصرخ أحدهم بهذا الاسم الغريب: «الفلسطيني»، يتدفقون عليّ، نازلين عن الدرج وخارجين من المصعد وقادمين من الخارج، ويطوقونني في ساحة المدخل، كانوا خمسة عشر طفلا، على الأقل، بقيادة علي، طفل أكبر مني سنا، وأضخم جثة.

كنت طفل جبال فظا، وقوي البنية، وفيّ غرائز الجبال وقسوتها، صارعت جميع العصابة، كنت أقبض على رأس علي تحت ذراعي اليسرى، وأجرّه من جهة إلى جهة، حسب اتجاه الضربات، فتصيبه ضرباتهم بدلا عني، وأضربهم بيدي اليمنى، ولكنهم كثرة، ففكرت في حيلة أخرى، أخذت عدة ليرات من تحت السجادة واشتريت مسدسا أسود من البلاستيك، وعصا شرطة من البلاستيك، وقيدا من البلاستيك،



لعبة أطفال عسكرية كاملة تليق ببلد لا يستطيع العيش دون حرب أهلية كل عدة سنوات. ذوبت ماء وملحا معا، وحشوت المسدس بالمحلول، وعلقت العصا على خصري، والقيد في حزامي، وانتظرتهم في المدخل وأنا أتبختر مثل الجنرال في متاهته.
ومن أول ما هجموا عليّ، قبضت على رأس علي بيد، وأخذت أجره كالعادة، وبيدي اليمنى أطلق الماء المالح في عيون البقية، وأصبت عيون مجموعة، ذهلوا تماما، وتجنبوني لمدة، ثم خرجوا بخطة مضادة، قبض علي على معصم يدي اليمنى، وطفل آخر على معصمي الأيسر، ولم أستطع استخدام مسدس الماء، وكان من الواضح أنني سأهان كليا هذه المرة، قمت بجر الاثنين معا نحو باب زجاج في آخر المدخل، وضربت يد علي بحافة الزجاج عمدا، فنشب منها الدم، وسال على الزجاج، ولم أعد أسمع إلا صرخات رعب من «العصابة» كلها، ونزل سكان الطوابق العليا على الصراخ، وخرج أبي من الساحة.
أعني أن «الفلسطيني» أول لقب لي سال منه الدم، وأدركت عندها، ولأول مرة، خطورة الكلمات، وتصادقت أنا وعلي، وكان أول من أخذني كي أرى البحر.
بعد عدة سنين فقط من هذا، اندلعت أعنف حرب أهلية في تاريخ لبنان، وزرت بيروت، لكي أرى «طفولتي». في المدخل الرخامي، كان رجل آخر، غير أبي، يجلس على كرسي قش، وفي بيتنا، مقابل المدخل، تسكن عائلة غير عائلتي. «هل أستطيع مساعدتك؟»، قال، «بفنجان قهوة، ربما». ووقفت أتفرس المدخل وأفكر، حين دخلت امرأة تحمل سلة فواكه، وسألته عني، وتعرفت عليها: أم مارون!
«أتذكرينني؟»، انصدمت قليلا ثم قالت بعد شرود: «إنت ابنو لجميل؟»، «أه، ابنو لجميل!». كان «أبو مارون» سكيرا مدمنا، يشرب العرق كل مساء بثوب نوم فستقي يكشف شعر صدره الأشيب، وله محل لبيع الذهب في «ساحة البرج»، في مركز بيروت التجاري. دعتني إلى الغداء، فصعدت معها. سألتها عن محل الذهب، قالت تدمر، وعن أبي مارون، قالت إنه مات من السكر، وعن مارون، قالت قتل في الحرب. لم يبق شيء غير أن أتناول الغداء بصمت، وأرحل. كانت المخابرات الإسرائيلية قد اغتالت غسان كنفاني، بسيارة مفخخة، وقالت أم مارون إنهم لملموا أشلاءه عن الشجر، ووجدوا ساعده على ظهر بناية وعليه «ساعة يد» لم تزل تدق..
ما أريد قوله هو أن سببا من أسباب هذه الحرب الدامية كان «الكلمات»، كل طائفة لها «اسم»، أو «لقب»، وكل طائفة تكره أي لقب أطلقته هي على غيرها، أو أطلقته طوائف أخرى عليها، ولكل طائفة «كلماتها»، وطريقة لفظها للكلمات. اللغة سحر أسود. على كل، بعد مشكلتي مع علي، وأطفال البناية، رجعت إلى عالمي الفردي. فقد صرت «طفلا خطرا» في نظر الأطفال كلهم، وبقيت «فلسطينيا» في نظرهم، وغريبا عنهم، من «طائفة أخرى».
كنت طفل إنس أو جن منفردا، قابعا في ذاته، في جوف عالم خاص به، مهووسا بالأحرف، أو خائفا من الغول، أو مجذوبا إلى القمر، لا فرق، المهم أن قلبي كان حيا، يشعر بدنيا مسحورة، بروحانية تسري في الأشياء والكون، سواء أسميت هذه الروحانية جنا، أو قمرا دخانيا، أو لغزا، أو غولا أو بلاهة، أو حكاية شعبية، أو حتى ضبعا، كانت الآبار مسكونة، والكهوف مسكونة، والنفس مسكونة، وكنت «متعددا»، فيّ أشخاص كثيرون، لكل واحد منهم اسمه، إلا أنا، أنا الوحيد الذي كان يشعر بأن لا اسم له، لا هو عبقري، ولا فرخ أهبل، ولا أطرش، ولا فلسطيني، ولا أي شيء آخر، بل ماهية لا اسم لها، وشعور سري بيني وبيني. وهذا «الباطن الشفيف»، الكائن الذي لا اسم له، الوجود بين «المسمى» و«اللامسمى»، هو من كان مفتونا بسحر اللغة، والكلمات المغلقة.
والكلمات كالأرض، مقسمة إلى مناطق نفوذ، وكنت أميز بحدة بين منطقتين من الكلام بينهما سياج: «كلماتهم» «هم»، خبراء النهش، و«كلماتي» أنا. هربت إلى أرض من كلماتي، أرض غريبة أكتبها، وأشطبها، وأبنيها، وأهدمها، وأحادثها، وأفعل بها ما شئت، بدلا عن عالم يفعل بي ما يشاء، و«كلماتي» تشبه العجين: طرية، في غاية الليونة، تتشكل بلمسة من إصبع طفل، أو تشبه ترابا كنت ألعب به، يشبه مسحوقا ناعما يتكون منه شلال فستقي ينزل من داخل قنينة، أو تشبه قنينة كنت أتخيل في داخلها قصورا بقاعات وطرق شفافة، أما الناس فحجارة، لا! لا!، الحجارة صديقتي. الناس، لا أدري! كيانات غريبة لا يمكن أن نتأكد مما هي بالضبط، لا لفظة تعني الذي تعنيه عندهم، وفيهم أبعاد غير مرئية، يشبهون بئرا برية في الجبال كنت أحبها: عندما كنت أحدق فيها تحت القمر وأتكلم، يأتي صدى واسع، عميق، يسمونه في الريف «عامورة»، روحا تجعل المكان «عامرا» بقوى غيبية ما، ومثل البئر بالضبط، الكلمات الملفوظة فيهم، في الناس، تعود إليّ بصدى مضخم، ولكنها تبدو غريبة عني، تلبستها أرواح أخرى.. اغتصبوني حتى وصلوا قلبي، يا بري، وكنت حزينا إلى حد لا يصدق!
«من منا لم يغتصب يا حسين! أفواه الناس آبار يا رجل، آبار!»..
توجد بئر من هذا النوع في قريتنا تدعى «ستي عين القبة»، في جوف كهف روماني، وعلى الباب بلوطة ضخمة، كل من كان يمر من هناك، ليلا أو نهارا، ويفكر بشيء سيئ، أو يبول، أو يتجاوز حدا خفيا ما، كان عليه أن يربط خيطا أصفر أو أسود أو شريطة من ملابسه على فرع البلوطة، ومن لا يفعل ذلك، تأتيه سيدتي في الأحلام وتخطفه إلى دنيا أخرى، كانوا يقولون إن السيدة قادرة على الفيضان، ويمكنها أن تغرق الجبال، إن شاءت. ومرت «سبع سنين عجاف»، وجفت السيدة. قالوا ستفيض، إن قدموا لها بنتا صغيرة، كقربان. ولم يتبرع أحد بابنته، الناس كهذه السيدة، لم أقدم لهم ابنتي أو قرابيني كي يفيضوا بالحب، ربما، ولم أدرِ أيامها أنني أنا نفسي سأجف، كالسيدة، سرا، ولا أحد سيقدم لي ابنته كي أفيض.
كنت حيا، منسحرا، مسكونا بأرواح شتى. بعدها، فقدت حتى هذا، وحل في روحي جفاف قلق، وبدأت أفقد قلبي نفسه، ودخل جنوني «مقام الرمل». هذا يذكرني بمنطقة غابات وأنهار كانت مقدسة عند الهنود الحمر، ودمرها «التقدم الأبيض»، وحوّلها إلى حطام بيئي، جفت المياه وماتت الأشجار، فسألوا عجوزا هنديا، محاربا قديما، عن سر الدمار هذا، فقال: لا أدري! كل هذه المياه والغابات كانت مسكونة بالآلهة والأرواح، ذات يوم، ولكنها الآن ماتت أو هاجرت أو أبيدت، لا أدري، وأنا كذلك، ماتت في قلبي روح الغابة والماء أو هاجرت، أو أبيدت، لا أدري.
جفاف القلب! هذا هو كل شيء، عقلي كان ينمو وقلبي يجف، الوعي السحري الذي نشأت عليه، ككل قروي فلسطيني آخر، غزته «المعرفة العلمية» الحديثة، الباردة، الدقيقة، «الموضوعية»، صرت مثل مصطفى سعيد في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، ومات فيّ ما مات، لا أدري، وجف القلب.
من هذا الوجع والجفاف، بدأت أكتب أغنيات، عندما كبرت. أغنية «جبينة»، التي تذكرتها وأنا أسقي البغلة الحمراء من العين، حولتها إلى أغنية لفرقة غنتها أمام عدة آلاف في مهرجان فلسطين في بيرزيت، وتفاعل الكل وراء أي حد كنت أتصوره، وكنت جالسا على سور من الإسمنت، بعيدا عن الجميع، وأراقب فقط. عمق الغناء يأتي، أحياناً، من عمق الوجع، كما يأتي الضحك الذهبي أحيانا من كثرة المتاهات. كتبت أغنيات كثيرة، ولكن قلبي جف بالتدريج. وصلت الحالة في ١٩٨٥ إلى حد سريالي، لم أعد أشعر بشيء. توقف كل شيء، ولا نفحة روح في الكلمات. وقررت تعلم العزف على الناي!. تخيل عازف ناي في هذه الجحيم القديمة!
سكنت في أواخر ١٩٨٥ في بيت له «بلكون» زجاج، وحوله حديقة ورد، يقع على الحد بين القدسين: اليهودية والعربية، وكأنه في منطقة حرام ما. أمامي، على الجهة المقابلة بيت فلسطيني قديم وضخم، حوله أشجار صنوبر أضخم منه، ومحاطة بأسلاك شائكة تدهورت حالتها، جذبتني طاقة الحطام هذه، فصرت أعزف وأراقبه. شيء فيه يشبهني، هكذا شعرت. في الليل، تنبح منه كلاب كثيرة، عددها لا معقول، وتنبح، تنبح، بجنون وغضب، وكأن شيئا يحدث في الداخل، داخل البيت، أو الكلاب، أو في داخلي أنا. حدقت حولي في الشوارع ذات المصابيح الصفراء، الشوارع الخالية، لكي أرى إن كان هناك أحد يسمع ما يحدث غيري، ولم أرَ غير شبابيك مغلقة تماما، مرة وإلى الأبد، هكذا تبدو، مغلقة، مرة وإلى الأبد، خلفها عائلات أو عاهرات أو لا أدري، خلفها ما لا يفصح عن نفسه. حاولت أعزف، ولكن النباح طغى على اللحن، فوضعت الناي في حضني، وشردت في منطق هذا المكان. الأمكنة كالناس: تخفي وساوسها ومخاوفها في نفسها، ولها كلام خاص بها، ومنطق خاص بها.

كنت شبه عار، والضوء في «البلكون» مطفأ، وأحدق في ذلك البيت المليء بالعواء، خرجت منه عجوز منحنية، شعرها أبيض جدا، ومنفوش، وتلبس ثوبا فاتحا من الكتان، أقرب إلى لون زهري متسخ، ونهودها متهدلة، وفي يدها اليمنى كيس قمامة أسود، صعدت إلى الشارع الخالي وهي تكلم نفسها. كل منظرها يوحي بعالم مهدم قبل قرون، عالم تسكنه كلاب تنبح بجنون في الوحدة.

في تلك الليلة غفوت، وفي قلبي قلق غامض، في غرفة واسعة تطل على الحديقة، واستيقظت بعد منتصف الليلة على نباح متوحش، حادّ، وكأن شخصا معتوها كان يجلد الكلاب بسياط من الألمنيوم، ويمزقها قطعا، فتجن وتنهش لحمه، وسمعت صراخ المرأة، ومن دون وعي، فكرت بأن معتوها ما كان يغتصبها أو يبيدها، أو يجلدها مع كلابها، فركضت إلى «البلكون»، عبر باب الزجاج، ثم إلى الحديقة، فالشارع. كانت واقفة تحت الأضواء الصفراء تهز قبضتها ضد السماء لسبب ما، وتصرخ، بالهنغارية، فوجئت من كونها يهودية هنغارية، لعلها من أرستقراطية ما قبل الشيوعية هناك، أو فرّت من النازية في هنغاريا في الحرب العالمية الثانية، وسكنت في بيت فلسطيني تقليدي، ربما استأجرته، لأنه «على الحافة»، أو سكنته بعد طرد سكانه من العرب، كالعادة.

صرخت نحوها بالهنغارية «مي فون ؟» (شو في؟)، هزت قبضتها نحوي بجنون، واتجهت إليّ تنتفض وكأنني سبب مأساة كلابها، وعندها فقط، انتبهت إلى كوني بملابسي الداخلية فقط، شبه عار، ونظرت للشبابيك برعب حقيقي: أنا الذي سيتهم بمحاولة اغتصابها! وإلا، فما معنى أن أقف هكذا بعد منتصف الليل في منطقة ممنوعة، شبه عار؟ كان قضاء الليل في القدس كلها ممنوعا منعا باتا على كل فلسطيني، مثلي، من «المناطق المحتلة»، دون تصريح عسكري، وسأتهم بمحاولة اغتصاب بشعة لعجوز يهودية، وبخرق القانون معا، مما يعني محاكمة عسكرية وأخرى مدنية. حدقت برعب في الشبابيك المغلقة، والمضاءة، ألم يرني أحد؟ وهربت لـ«البلكون»، وأقفلت باب الزجاج، وكنت أرتجف. حتى التعاطف مع الناس صار خطرا.

جئت بعد هذه الحادثة بقليل إلى سياتل. وصرت أتسكع ليلا في الغابة الصغيرة المحيطة بالحرم الجامعي، وأفكر، أفكر، أفكر، أفكر، أفكر دائما في أفق ما، قصيدة ما، فلسفة ما، لا قلبي يشعر بما أفكر به، ولا عقلي يتوقف عن الهيمنة على روحي، كل فكرة قطعة حطب يابسة.. نقطة. ولفت تسكعي نظر الشرطة الأميركية، فنصبت لي كمينا: سيارة صفراء للأجرة، من نمط الـ«يلو كاب»، فيها امرأة تشبه تلك المرأة الهنغارية، نائمة بهدوء، وباب السيارة مفتوح، والفكرة أنني «مغتصب»، يبحث عن صيد، وستثير امرأة نائمة كلاب غرائزي، وأهجم. الشرطة ذكية، نواياي جنسية، بالتأكيد، لأن الجنون الذي كنت على بابه لا يترك حلا آخر غير «شهوة بلا جمال» لأية أنثى، لكن الاغتصاب فكرة لم تخطر ببالي أبدا، والشرطة غبية: أريد امرأة، لا شبحا!

على كل، كنت أتسكع حتى الصبح، كما قلت، وأفكر، أفكر، أفكر، ومع التعب والمشي، يتوقف رأسي عن الحركة، وأنهمك في مراقبة «الأشياء»، من أضواء النيون في شارع الجامعة الخالي، حتى «مصائد الشرطة»، وصناديق القمامة، واستولت عليّ وساوس أخرى.

مرة رأيت «بنسا» (الدولار مائة بنس) فضيا في الشارع، فالتقطته، ووضعته في جيبي، هكذا، بالصدفة، ولا أي هدف من وراء الفعل، أبدا، مجرد نزوة لامعقولة وعبثية، وبالتدريج، وجدتني أجمع البنسات، حيث يلمع بنس على بعد ميل أتعرف عليه، صرت كقطة ترى فأرا من الفضة، وكنت أفرغ البنسات في بيتي، في «الأستوديو»، وأعدها، كل يوم، حتى يكتمل الدولار، وأدمنت على جمع البنسات، أو القمامة، إن شئت، مثل «دون»، لكن البنسات قليلة، لا يرمي الناس بنسات، ببساطة، وإن رموها، يجمعها مشردون كثيرون غيري، ولم أعد قادرا على «المشي بلا هدف»، صرت أجمع سدادات علب الكوكا كولا، لأشهر.

ثم خرجت من هذا الإدمان إلى إدمان آخر، عندما تذكرت أن غوغول، الكاتب الروسي الذي جن في شبابه، كان يمر بنوبات كآبة، فيخترع أوضاعا مضحكة جدا ليضحك، فقط ليضحك، وينجو من كآبته، وكتب قصصا قصيرة مستوحاة من «هذه السخرية التي يخترعها»، غوغول كان متأثرا بـ«مسرح الدمى»، ورأى دمية في داخل كل إنسان، أو بالأحرى، رأى الكاريكاتير في الإنسان، ورأيت الكاريكاتير الذي فيّ: طالب ماجستير في الأدب العالمي يجمع بنسات وسدادات كولا!

وتحول الهوس إلى مسار آخر: قررت كتابة قصص قصيرة أساسها هذا «العبث»، في وساوس لا منطق فيها أبدا، وساخرة جدا، كي أضحك، وأكملت مجموعة منها يتسلى بها أصحابي من الشواذ والصعاليك في «المخرج الأخير»، قبل أن أتعرف عليك، منها، مثلا..

قصة الحجر

تلقيت حجرا بالبريد، حجرا حقيقيا، مترا في متر في متر من الحجر. مش معقول. تلقيت قصاصة ورق من بريد القدس الشرقية عن أن لي «طردا بريديا»، ولما ذهبت، قال لي موظف البريد: يكلفك استلام الطرد عشرين ألف دولار. «نعم؟ دولار زائد دولار زائد دولار، لعشرين ألفا؟». فكرت أن أترك كل هذه البلاهة، ولكن لفت نظري أن طردا بهذا الثمن لا يمكن أن يكون عاديا. بعت بيتنا في مخيم اللاجئين، واقترضت ستة دولارات من عمي، وخمسة من خالي، وبعت كتبي، وهكذا، حتى جمعت المبلغ، واستلمت حجرا. لم أصدق عينيّ في البداية.. حجر، لكن عليه أختاما من دول شتى، يبدو أنه بدأ رحلته من ميناء سيدني في أستراليا، ثم لميناء مارسيليا في فرنسا ثم لبيرل هاربر، وهكذا، وهكذا، منذ نصف قرن وهو يلف في الموانئ والحدود، وأخيرا، وصل ميناء حيفا ثم إلى بريد القدس، وعليه أختام من كل نوع ولون.

كنت قد بعت لأجله كل ما أملك، وأخذت أخي الصغير وأمي للسكن في فندق رخيص في القدس القديمة حتى يفرجها الله، وعليّ الآن دفع أجرة لحمال يساعدني في نقله للفندق، فمن الجنون أن أتركه بعد كل هذه التكاليف. وضعته في زاوية غرفتنا في الفندق، فندق من الدرجة الثلاثين، تعيس، بلا ماء ساخن أو بارد، وجلست أمامه أفكر، مش معقول، يعني مش معقول، أمي قالت إننا انتهينا في فندق من تحت رأس حجرك، وأخي لا يستطيع الذهاب لمدرسته، من تحت رأس حجرك! عند أمي، ليس هذا «حجرنا» بل «حجرك».

كان لي عم سافر إلى الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٤٨، ولم يرجع، وقيل إن عنده بارات في لاس فيغاس، ولم يتزوج أبدا، قلت: لعله بعث الحجر ليتأكد من وجود وريث له، فهو الآن عجوز. هاتفته قال إنه لم يسمع بي ولا حتى بكوني ولدت، وسيرفع قضية ضدي إن سمع بي ثانية، قلت: لعل الحجر له قيمة أثرية ما، فبعثت قطعة منه إلى قسم الآثار في الجامعة العبرية، وجاءت النتيجة بعد أسبوع: ولا أية قيمة له، بدولار واحد تستطيع شراء ميل مكعب من حجارة من هذا النوع.

وانتشرت القصة في الصحافة، نتيجة لطرافتها، وحيث أذهب، يسألني الناس: «كيف حال الحجر؟». هربت من الصحافة لمقهى صغير في آخر ضواحي القدس الغربية، حيث لا يعرفني أحد، لأفكر في الحجر بهدوء. طلبت قهوة عربية من الجرسونة، وهي يهودية روسية شقراء ونحيفة، وبمجرد أن وضعت الفنجان أمامي، قالت: «القهوة مدفوعة، كيف حال الحجر؟».



فكرت أخيرا في استئجار سيارة، وفي أن أدحرجه من رأس جبل نحو الوادي، وانتهى. عدلت عن الفكرة، لأنني سأشعر بالذنب من وضع عائلتي في الفندق، بسبب حجر دحرجته إلى الوادي، وفوق هذا، قلت إنني لن أنسى ما حدث أبدا، سأظل أتذكر كيف دحرجته، وكيف تدحرج، وسيسكن في ذاكرتي. وزادت وساوسي منه. مثلا، صرت أحلم بكوابيس عنه. على الأقل، لا أريد الكوابيس! فاشتريت علبة «دهان» من السوق، ودهنته بألوان زاهية جدا: برتقالية وصفراء وحمراء، وكل ما يسر الناظرين، لكي أشعر بالفرح من النظر إليه. وبدل الفرح، حلمت بأنني في سهل واسع مقعر مليء بحجارة وردية وصفراء وحمراء من هذا النوع، وأنا أركض مثل طفل يتيم يبكي في السهل بين الحجارة وينادي على أمه، ثم حلمت بحجر بحجم نصف كرة أرضية، فوقي، وأنا تحته مثل قطعة إسفنج مضغوطة، ولا تتنفس أبدا.

وهكذا، لم أدر كيف أتخلص منه، وأخيرا عثرت على حل: قررت أن أقدسه، فاشتريت شمعتين، وأشعلتهما أمامه، ليلا، ووضعت حوله كؤوس نبيذ، وفوقه قصاصة الورق التي بعثها لي البريد، وصرت أسهر قربه برهبة، وقلت لا بد أن فيه قوة غامضة وراء أي قدرة على فهمها.

حدث وأن زارني صديق يعمل دليلا سياحيا، أيامها، وفرط من الضحك من أول ما رآني – جاء لأنه سمع بقصتي، أصلا – ولكن لم يتوقع تقديسه، ففرط من الضحك، قلت له إنه يستطيع إحضار السياح إلى غرفتنا في الفندق. سألني: «ولماذا؟»، قلت: اسمع! سأكتب تاريخا مزورا للحجر، عن أنه مثلا كان مقدسا عند الكنعانيين، ثم سرقه الرومان في كذا وكذا قبل الميلاد، ثم ضاع لمدة حتى عثر عليه بدوي بالصدفة أثناء الحروب الصليبية، وهكذا، اترك الحبكة لي، ونطبع التاريخ في كتيب أنيق بماء مذهب، وتجلب السياح للحجر ونتقاسم الأرباح، فكر طويلا، ثم قال كمن أفاق من حلم: «موافق».

غرقت في أبحاث في مكتبة الجامعة العبرية لشهر، وكتبت «بروشورا» راعيت فيه دقة الحوادث والأزمنة والتاريخ، باقتباسات من مؤرخين شتى، وطبعت ما كتبته، وبدأ كل شيء يأخذ مسارا جديدا. فعلا، في مدة قياسية، استرددت كل ما خسرته، وتعاقدت مع شركة نشر سويسرية لكتابة «تاريخ مفصل» عن الحجر، وهكذا، وهكذا، مشاريع وراء مشاريع. وفي وسط هذه اللعبة الرائعة، فوجئت ذات ليلة بالشرطة تطوق الفندق، وقال لي ضابط سمين: «أنت معتقل،



الحجر، كما تعلم، ملك للدولة، ككل الآثار، وقد خرقت القانون»، ولما شعرت بأنني في الزاوية ساومته: «أعطيكم الحجر، وتتركون لي المال الذي أخذته، وإلا ستبدأ فضيحة عامة حتى في الصحف، تشوه سمعة الدولة أكثر، وسمعة السياحة!»، اتفقنا.

وأخذته الشرطة مني، ووضعته في متحف للآثار في القدس، بالقرب من «باب الخليل». وفي ذات يوم، بعد سنين، كنت مارًا من هناك، فرأيت صفا من السياح واقفا على الدور لرؤية «الحجر»، وكل يحمل نسخة من «البروشور» الذي كتبته، ضحكت ومشيت، ولكن بعد عدة خطوات وقفت وقلت: أقسم بالله، إن في هذا الحجر سرا ما، ورجعت، وتناولت نسخة من الـ«بروشور» الذي كتبته، ووقفت أنتظر دوري لرؤيته».

قصص من هذا النوع، خطرت في بالي فكرتها حين تذكرت بأن «غوغول»، قبل أن يجنّ، كان يمر بنوبات اكتئاب فظيعة، فيخترع أوضاعا مضحكة للتسلية، منها صاغ قصصا، وكنت أحاول أن أتعلم شيئا من تاريخ الجنون العالمي هذا.

«قلبك يختنق». رد بري، «قلبك يختنق يا رجل».

ولم أدرك أنه قصد أن الحياة دون قلب، أو بقلب مخنوق «زائفة»، وكل ما كانوا يعلمونني إياه في الجامعات عن «الموضوعية» في التفكير، ليس إلا اسما آخر لهذا الزيف نفسه، ليس إلا «حجرا» آخر في بريد أكاديمي.

كنا نتحدث في مقهى «المخرج الأخير»، يومها، مساء، وكانت نادلة شقراء تلبس «مريولا أبيض»، وذات وجه جاف أشبه بمعجون من البلاستيك، لا تبتسم ولا تجامل أبدا، ومغلقة على نفسها تماما، تشعل مصابيح الـ«كاز» فوق طاولات الخشب، وكان بري يحدق فيها ويدخن، بصمت. قلت: «بم تسمي شخصا مثلي يفكر، ويفكر، ويفكر، ولكن لا يشعر بما يفكر فيه، ويحتاج غصن صنوبر بين الكتب، ويحيا في رأسه، على رأي سوزان؟».

نظر إليّ، وقال فاتحا عينيه بجنون، كمن ارتعب مما رأى: «هذا يدعى نقصا في حشوة روحك، في جوهرك»

«أعتقد»

قال دون أن يستمع لبقية قولي:

«لا تعتقد، افهم، عندما يستولي العقل على الروح، يجف القلب، يا رجل، أنت جاف»

«وما هو الجفاف؟»

«نوع من الزيف»

«وأنا زائف؟»

«نعم!»

أدرت نظري في مصابيح الكاز، وكتمت غيظي قائلا بصوت منخفض، لئلا أعكر صفو فتاة شقراء تعزف على البيانو:

«أنا هنا في «المخرج الأخير»، وزني سبعون كيلو غراما، وأحتل حيزا، كالطاولات والمصابيح، حقيقة، بكل ما يجب أن تحترم به الحقيقة، لأنها موجودة، ما معنى أن أكون حقيقة زائفة؟»

قال:

«كلك شوك، لست أدري كيف أمسك بك!»

«أنا زائف، ولكن ما هو «الزائف»؟، قل لي يا رجل!»

«الزائف هو كل ما يضعه القلب جانبا ويقول عنه «هذا زائف».. قلبك، وليس أنا، وضع كل حياتك جانبا وقال عنها زائفة»

«أنا زائف؟ وأنت؟ كل من هم في المقهى يعتقدون أنك مجنون أو منفصم الشخصية!»

«أنا مريض، على الأقل مريض، ولكنني أشفى، ولا يشفى إلا مريض، أما أنت، فحالة فاشلة، لست حتى مريضا، الزائف حقيقة يدحضها وجودها».

صدمتني دقة أقواله: لا يحتاج أي إنسان زائف مثلي إلى أي إنسان آخر أو أي برهان آخر لكي يدحض وجوده: أنا خير دليل ضد نفسي. كان وجعي مما أراه في نفسي هذه لا يطاق، فليس من السهل أن نرى الحقيقة، وبالأخص حقيقتنا نحن. قلت، بصوت مخنوق:

«بري، ألا تعلمني شيئا إلا بتدميري؟ أنت تنبش أسوأ ما فيّ»

«يا حسين، لا أدمر حين أشير إلى دمار سابق، لن تتعلم دون أن تتألم»

«كيف؟»

«هل سمعت بـ«التخلف العقلي؟»

«نعم»

«هناك تخلف قلب أيضا، قلبك معاق، نقطة، دع قلبك ينمو يا رجل».

ومن علامات «تخلف القلب» هذا، الشعور بالذنب الذي كان يجتاحني، نوع من أنواع «تحول» الذهن إلى «قاعة محكمة» بقضاة، ومحامي دفاع، ولائحة اتهام وشرطة، ومتهم. قلبي كان قاعة من هذا النوع، أشبه برواية «المحاكمة» لكافكا.

«من هم هؤلاء الذين يسكنون في ذهننا ويتهموننا يا بري؟»

«لا أدري يا رجل»

«طيب، ما هو الشعور بالذنب؟».

أشعل لفافة تبغ جديدة من نوع «عثمان»، وأطرق لمدة ثم قال:

«الشعور بالذنب فعالية قلب لم يتعلم، بعد، العيش في فعاليته»

«مثلا؟»

«مثلا الأمير هاملت!».

تذكرت حلما كنت حلمته أيامها: كنت واقفا فيه على مقبرة صغيرة على حافة القرية التي ولدت فيها في فلسطين، والدنيا قمر، والجبال تسبح في الصمت، كنت عاريا تماما، وعلى جسمي كله، باستثناء الكتفين، وشاح من مخمل أحمر ناعم، وكنت أقول للموتى: «أنا لست الأمير هاملت، وليس مقصودا في معناي أن أكون..»، وهي جملة مستمدة من بيت شعر لـ«ت.س. إليوت».

هاملت متردد، عاجز عن الإتيان بفعل حقيقي وحاسم، أي عن الانتقام لأبيه، وسر «شلل» الإرادة هذا، هو شعوره الساحق بالذنب، حسب رأي فرويد. تذكرت الحلم، كما قلت، وكنت قلت مقطع ت. س. إليوت بالعربية: «ليس مقصودا لمعناي أن أكون..». ولهذه «الترجمة» معنيان: ليس مقصودا أن أكون الأمير هاملت، أي أنني متهم بكوني كالأمير هاملت، أو: ليس مقصودا أن «أكون» إطلاقا، أي أنني عدم، أقل حتى من شبح. والمكان نفسه! يا إلهي! مخمل أحمر على مقبرة مقمرة! وأخاطب، ربما، أبي الميت من سنين. حدثت بري عن حلمي هذا. قال:

«قلبك لم يتعلم أن يشعر يا رجل، ولا أن يعيش في شعوره، إلا في حالة واحدة: تحويل نفسه إلى جحيم».

قلت له إن كلمة «قلب» في العربية تعني أيضا «قلب» (الأشياء رأسا على عقب)، الانقلاب، ومن المصدر نفسه جاءت كلمة «قالب»: فالقلب يتذبذب بين كونه قالبا وبين كونه انقلابات الروح. هزّ رأسه فجأة وقال، بلذة طفل وجد شيئا:

«هذا هو البرزخ، هذا هو البرزخ»

لفظ كلمة «برزخ» بالعربية، وصعقني ذلك، كأنني نسيت أن بري تركي. كنا ثقافة واحدة، يوما ما، نحن والأتراك، وأبي كان يحفظ كلمات تركية كثيرة. وانهرنا معا، نحن والأتراك، صرنا مستعمرات للغرب، وصاروا أشباحا بعد أن قام أتاتورك بـ«غربنة» تركيا. وها نحن، أنا وبري، أبناء هذا التاريخ الضالّ، نلتقي في أميركا، ولا نتفاهم إلا بالإنجليزية، وفقدنا صلتنا ببعضنا، إلى حد أنني استغربت من كونه يعرف العربية.

على كل، خطر في بالي أن «البرزخ» حاجز في القلب بين «بحرين»: بحر مالح، وبحر حلو، ومن البوابة التي تفصل المائين، يطفح ماء المرارة على ماء البهجة أو بالعكس.

ففي أساطير منطقة البحر المتوسط، كان تمييز قديم بين المائين: المالح والحلو، وتأليه لهما معا. وفي القرآن الكريم، جاء أن «البرزخ» يفصل بين بحرين مرجهما الله فهما لا يلتقيان، وشعرت أن «النشوة» بحر حلو في القلب، في هذه الأغوار التي لا يسبرها غير من هو أهل لها، بحر من المشاعر «الإيجابية»، كالأمل والفكاهة، وهناك بحر آخر مالح من الألم، والخوف، والندم، والحزن، والانتقام، والحسد، والمشاعر السلبية الأخرى. بين بحر الإيجاب وبحر السلب «برزخ»، فهما لا يلتقيان إلا عندما «يتعكر العالم»، كأن يأخذ الشلال ماءه الحلو إلى بحر مالح يصبح سيدا عليه. وسميت هذا، أي اختلاط المائين في القلب، الـ«طفح»: وتيقنت أن «جنوني» يرتبط بطفح «بحر السلب» على قلبي، ومنه «جفاف القلب»، أو، كما يقولون عندنا في فلسطين: «قلبه ميت»، أو «حجر»، أو «لا قلب» عنده. وللطفح حالاته ومقاماته: في حالة «مجنون ليلي»: القلب غارق في عوالم «سلبية»، كالشعور بالحرمان من الحبيبة، والفقدان، ومنفى الشهوات ككل، بدل «جفاف القلب»، عنده «جنون قلب».

وفي طائفة «الإله بتاح» الفرعونية أن كل شيء يأتي من القلب، كتصورات تطفح منه إلى اللغة، ثم يلفظها اللسان، وحتى الآلهة تأتي كتصورات ترتسم في القلب. وعند السومريين،



قبل عدة ألفيات، أن الآلهة كانت تسكر، فخطر في بالها خلق الإنسان لكي يكون عبدا لها، يطعمها ويسقيها، وأول ما خلقت «القلب الإنساني»، ثم خلقت بقية الجسم حوله. وعند طوائف الصوفية ككل، يأتي القلب في «المرتبة الأولى»، أو الثانية. أما في ملحمة جلجامش، فلا يوجد أي معنى حقيقي لـ«الروح»، بل فقط لـ«القلب»، وعندما يحلم أنكيدو بأن مجلس الآلهة قرر موته، يسأله جلجامش: لماذا يحدثك قلبك هكذا؟ وهو نفس قول الشاعر العربي القديم: «قلبي يحدثني بأنك متلفي»، والعالم السفلي نفسه في الملحمة «حلم القلب»، وحديثه، وعلى رأي نيتشه، رأى الإنسان الآلهة، أول ما رآها، في أحلامه.

كنت درست بدقة، وأنا في مكتبات الأسرار، لائحة بالمشاعر السلبية في قلب الإنسان، في كتاب «قلادة الفهم الخالص»، ولائحة بالمشاعر الإيجابية. ولكن «اللوائح» توحي بجمود جليدي. «البحر» أقرب لحركات القلب من أي شيء آخر. هناك بحران: سلبي وإيجابي، وبينهما «برزخ» أعتقد أنه «الحياد»: اللامبالاة ليست حيادا، بل موجة سلبية. «التورط في الموقف»، أي موقف، ليس حيادا، وحتى التورط في عدم التورط ليس حيادا، «برزخ الحياد» لغز.

والقلب يشبه لوح زجاج شفاف: جهة منه تطلّ على العالم والأخرى على الغيب. سألت بري: «ما هو القلب؟»

قال:

«الذكاء النقي»

«سأفكر في الأمر، سأفكر، يا إلهي، لعنة الله على تفكيري!»

«لا تفكر يا رجل، ستفهم بطرق أخرى».

و«فكرت» طويلا، رغم ذلك، في «هذه الطرق الأخرى» للفهم، وفيما قاله. لا منأى لمن «يتظاهر» بأنه «عاقل»، مثلي، من «عقلنة الجنون»، من أن «يتشبث» بأقوى ما فيه: عقله. وعقلي ضخم، هيكل معدني ضخم ومدهش، كان يدهش حتى أساتذتي في الجامعة، ولكنه كان «مائلا» مثل برج بيزا، وسيسقط، مصيره أن يسقط، وقدره أن يسقط. هذه «معرفة حتمية، وأكيدة جدا»، معرفة يشعر بها «الذكاء النقي»، أي قلبي، ومن اللطيف أن الجنون مغر، غريب كم كان يجذبني، كم كنت أرغب فيه، وأنوي عليه، و«لكل امرئ ما نوى». كنت نثارا من الصدأ منجذبا نحو جبل من المغناطيس، جبل لا أعرف ما هو، جبل مستور، مقمر، في أرض بها «شبه جنون»، ويشبه قول المتنبي: «لو كنت ملء حذائي» في مفاوز هذه المنطقة، «سمعت للجنِّ في غيطانها زجلا».

وكل ما توصلت إليه في «عقلنة جنوني» أنه نوع من إشاحة الوجه عن «معرفة أكيدة، وحتمية جدا»، عن شيء أعرفه، موجود في قلبي كله، ولكن لا أريد أن أراه، أو لا أجرؤ، أو لا أقدر على رؤيته، وبري كان يراه! وكنت أريد أن أرى ما يراه، ولا أكاد أحتمل ذلك.

وبدا لي بري أيامها مثل مخلوق برأس نسر وجسم كاهن، أو كسحرة العصر الحجري: بذنب ذئب، مثلا، وصدر امرأة، ورأس حصان، وهكذا، تجمع لقوى الغريزة الحيوانية كلها. وكان طلسما، وكنت مسجونا، مثل «علي بابا»، في مغارة مليئة بالجواهر والذهب وأكياس الحبوب في داخل صخرة مغلقة، ولن تنفتح الصخرة إلا بكلمة السر الشهيرة: «افتح يا سمسم»، كلمة نسيتها، وكنت أهتف في جنوني: افتح يا فول، افتح يا قمح، افتح يا قرد، افتح يا.. إلا السمسم، لم يخطر ببالي. وانسجنت في مغارة «الأربعين حرامي»، وأحسست بجدران الصخرة حولي، من كل جانب، ولم أر مخرجا، ومن أول ما التقيت ببري، عرفت أنه «يعرف كلمة السر».

مرة، مثلا، التقينا في سينماتك «الوهم العظيم»، أنا، وهو، وسوزان، ودون، وعضو طائفة راجنيش، وتلك البنت الضائعة من شيكاغو والمهزوزة مثل شبكة تنس، و«وين»، الشلة القديمة كلها، وكان اللقاء مملا جدا، فتركتهم وذهبت إلى الأستوديو. في الليلة نفسها، جاءني «دون» إلى هناك، واعتقدت أنه جاء كي يستفسر عن سبب تركي للشلة أو كي ينام عندي. «أهلا، دون، تفضل». «لا، شكرا»، ومد نحوي ورقة بيضاء مطوية وقال: «رسمت هذه لك». وتأملت «لوحته» هذه، كانت ورقة خربش فيها قدما متوحشة، بخطوط عشوائية وحادة من حبر أحمر سائل، وعليها، أعني القدم، تلتف خطوط توحي بصندل جلد، أصابعها فظة، ومتسخة، وتحت الأظافر بقع حمراء داكنة، وكأنها قطعت سبعة آلاف ميل من مستنقعات قصب وبعوض. وشعرت بوجع عميق، ولم أنتبه لكون دون قد ذهب وتركني واقفا عند الباب.

حلمت ليلتها بدون يقول لي: «يا صاحب الخف الأحمر، والقريب من النار، لست وحدك، أنت عضو في القطيع الأخضر». استيقظت وكتبت الجملة على ورقة قديمة حشوتها في جيبي، واتجهت صباحا إلى «المخرج الأخير»، متعكرا، وأنا أفكر في «دون».

أتى بري كعادته، وطلب مني دولارين لشرب القهوة، وقعد يلف لفافة تبغ، ويحدق فيها تستدير بين أصابعه. أردت أن أقرأ عليه ما قاله لي دون في الحلم، لكنه فرد رقعة شطرنج بيني وبينه، وأخذ يرتب البيادق عليها، وفي شفتيه تعبير يوحي باشمئزاز ما، ثم قال: «يا رجل، هناك من يحسدونك على قواك، انتبه». «من هم؟». قال: «لا يهم». «وكيف عرفت؟». «لا يهم».

لم أفهم من «هم، هؤلاء الذين يحسدونني على قواي»، ولا ما هي هذه القوى التي أستحق الحسد عليها، وخطر في بالي أن شيئا ما حدث بعد أن تركت الشلة بالأمس في «الوهم العظيم»، وإلا، لماذا أتاني دون إلى البيت، ولماذا يتكلم بري عمن يحسدونني على قواي؟

خرجت أفتش عن سوزان، وعثرت عليها ليلا في «الوهم العظيم». «سوزان، ماذا حدث بالأمس؟ أعني بعد ذهابي إلى البيت؟»، قالت: «لا شيء، قلت إنك ذكي، فعلقت تلك البنت من شيكاغو: آه، بالتأكيد، هذا هو كل شيء، لمَ تسألني؟».

يا إلهي! من كلمة واحدة، «آه، بالتأكيد،» فهم بري أن تلك البنت من شيكاغو تحسدني على قواي، من كلمة واحدة فقط؟ وأنا، «فرخ الأهبل» هذا، منذ طفولتي، لم أدرك أنني كنت محاطا



بمن «يحسدونني على قواي»، ولا حتى أن فيّ قوى يمكن لأحد أن يحسدني عليها؟ من كلمة واحدة؟
بعد سنين من هذه الحادثة، شاهدت فيلم «صمت الحملان»، وهو فيلم حاد عن خياط يتخيل أنه امرأة، فيقتل سلسلة من نساء يسلخ عنهن جلدهن، ويخيط من جلودهن ثيابا يلبسها، ويشعر وكأنه تحول إلى امرأة، فيرقص في موسيقى وإضاءات خافتة، ويلمس نفسه بشهوة، ويتمتم لرجل غامض في ذهنه: «انكحني، انكحني».
ويقول عنه مجرم آخر في الفيلم، بروفيسور في علم النفس، لمحققة شابة: عليك أن تفهمي جوهره، خلاصة روحه، عصارته: الحسد، «ومن نحسد؟ أناسا نعرفهم!». إنه، ذلك الخياط، يحسد النساء على كونهن نساء، فيسلخ جلدهن، ليصير امرأة، وكنت محاطا بكثير من خياطي الجلود هؤلاء! خياطين يسرقون طاقتي فأحس بالإنهاك، أو يسرقون أملي فأحس بالإحباط، وكنت أحتاج الحنان أو الاعتراف بي، أو الدفء، فلا يعترفون ولا يمنحونني شعورا بالدفء، فينهشون قلبي، فأحس باللاجدوى، والجفاف، كنت محاطا بطفيليات من كل نوع تلدغ الروح، خفية، وتتوالد حشرات تحت الجلد أكثر غرابة من حشرات غابات الأمازون. بري أدرك، من كلمة، إحدى أحقر القوى المحيطة بي: خياطي الجلود هؤلاء، وخياطاته!
كانت له أعين نسر وبصيرة عراف، وكان فقيرا كفأر معبد، ولست أدري حتى الآن كيف كان يدفع أجرة غرفته في ذلك «السكن الجماعي»، وهي أجرة زهيدة، على أية حال، مائة وخمسون دولارا، ربما، ولكنه كان يقترض مني كل صباح في المخرج الأخير ثمن قهوته، وكل مرة يقول «سأعيد لك كل دولار، بنسا بنسا، عندما أجد عملا»، وبعد قصة «خياطي الجلود»، التقيت به ثانية، ليلا، أنا و«دون»، ودعانا للعشاء. استغربت الدعوة، وكان بري حزينا ومطرقا معظم الوقت، وعرفت أن شيئا ما حدث.
خرجنا من المخرج الأخير إلى «شارع الجامعة»، وكان الإسفلت يلمع في أضواء النيون الباردة، وقلة من السكارى وبائعي المخدرات تتسكع هنا، وهناك، قرب «زقاق الجاز»، مررنا بصمت.
وصلنا ساحة إسمنتية واسعة مضاءة بالنيون، خلف سوبر ماركت الـ«سيفويه»، فيها صناديق قمامة خضراء اللون. فجأة، قال بري لي، مؤشرا نحو الصناديق: «هنا يرمون أشياء صالحة للأكل يا رجل، تعال». وركض وتسلق واحدا منها، وأخذ ينبش النفايات بيد، ويدخن باليد الأخرى، ولم أعد أرى إلا مؤخرته مرفوعة في الفضاء الخالي، وأخيرا، بزغ وفي يده اليمنى صندوق «بيتزا» مجمدة، ولوح نحوي بها. إذن، هذا هو العشاء! لم أكن متحمسا لوجبة من هذا النوع، وشعر بفتوري، فبقيت يده معلقة في الهواء لمدة وكأنه نسيها في أضواء النيون، ثم نظر إلى جوف صندوق القمامة، وقال: «وهنا دفنت كبريائي أيضا»، ونزل.
قعدنا نأكل البيتزا في صالون بيته، بعد تسخينها في الفرن، قال إنه لم يدفع أجرة البيت، وصاحب البيت «أنذره» بالطرد، وسيغادر بيته في آخر الشهر، بعد أيام، إلى الشارع. وفهمت سر حزنه. قلت: «وماذا ستفعل بعدها؟».

«سأتشرد!»
«تعال اسكن معي، في الأستوديو غرفة وصالون، اسكن معي، مجانا»
«لا يا رجل، استمتع بعزلتك»
«وأنت؟»
«أحتاج العودة إلى ماضيّ كشحاذ»
«تحتاجها؟»
«نعم، نعم، سأمتحن حدود فعل الخير عند الناس».
كان وكأنه يقصد أنه ينتظر مني مساعدة ما، ولكن لا مال معي، فعلا. فكررت بألم:
«اسكن معي وانس القصة»
«لا يا رجل، لا! استمتع بوحدتك، قد أجد عملا».
وشعرت بوجع عميق من «عشقه للمسافة» بيني وبينه. قلت له سأذهب إلى بيتي، «أتريد دون أن ينام عندك، أم هل يأتي معي؟».
ضحك وقال: «لا يا رجل، خذ دون معك، خذه، نحن كثيران على بعضنا».
ووجد عملا في مطاعم مكدونالدز. كان عاطلا عن العمل لسنين، ويحيا من صدقات كنائس، أو من.. لا أدري، ببساطة، لا أدري، ولكنه تركه بعد نصف ساعة، وأتاني في الثامنة والنصف صباحا، في المخرج الأخير.
سألته: «لماذا تركت عملك؟». قال:
«يا رجل، من أول ما دخلت الباب، رأيت قاعة خالية وواسعة، مليئة بالطاولات، وعلى كل طاولة كراسي مرفوعة، وعلى كل كرسي يجلس «بري» آخر، وهتفوا، لما دخلت والمكنسة في يدي: «يا الله، نظف المصطبة كلها، يا الله!»، قلت لهم: «لن أنظف أي شيء قبل أن تنزلوا جميعا عن عروشكم». «لن ننزل حتى تنظف المصطبة كلها، يا الله. تخيل يا رجل، تخيل، يفعلون هذا بي!».
كان يروي قصته مع «نسخه» بألم، ويكاد يبكي. قلت:
«لا تتوقع أن يكون الكل لطيفا معك»
«يا رجل، قال دارماكيرتي إن الفعل الصحيح يجب أن تسبقه دائما المعرفة الصحيحة بالأشياء، هؤلاء جهلة!».
وتشرد. لم أعد أراه إلا لماما. كان يأتي ليراني من مدة لمدة في «المخرج الأخير»، صباحا. لم يتكلم ولا مرة عن تشرده. ملابسه نظيفة: يبدو أنه كان يغسلها في «الغسالات العمومية»، ومعطفه «زالمارينز» محشو بأوراق كمبيوتر قديمة يكتب عليها بقلم رصاص خواطره، ولا مرة شكا من وضعه، أو ذكر ما يحدث معه، ولا مرة كان يبدو مهزوزا، وقال إن حفاظه على بقائه في الشوارع يعتمد على جملتين: «ابق وحدك»، و«حافظ على قيمتك بينك وبين نفسك».

في قلب كل مشرد، مثل بري، اثنان: شحاذ وإمبراطور، وحين كان ينزل في صندوق القمامة بحثا عن بيتزا مجمدة، كان إمبراطوره يبكي!، ورغم ذلك، لم يفقد ولا مرة حسه الذهبي بالضحك.

مرة قال لي وهو فارط من الضحك: «سأصدر جريدة تدعى «أيام بري»، كتبت كلمة المحرر، لو كنت مكانك، لأحببت أن أسمعها!».

وسحب ورقة كمبيوتر وقرأ ضاحكا، وبلذة، «لاحظت في المدة الأخيرة أن أخباري انقطعت عنكم، ولا جريدة تنشرها كل صباح، وأبشركم بـ«أيام بري»، حيث ستعرفون أخباري أولا بأول، وأعدكم وعد شرف ألا يكون باقي الجريدة مملا مثل كلمة المحرر!». ضحكت من الفكرة، وسألته كيف يقضي «وقت فراغه» في عالم الهامش.

قال: «أنا مشغول بتصميم مركبة فضائية صغيرة، لفرد واحد، وسأرحل بها وحدي، عندما تنتهي مدة إقامتي على الأرض، بين النجوم، في الفضاء السحيق، ولن أعود.» «وحتى ترحل، أين تنام؟»، قال: «زهقت من السكن في القصور المضيئة»، «أية قصور؟»، «تلك التي على الشاطئ». ومجمل «زهقه» أنه كان يرى في أثناء تشرده، ليلا، قصورا مضاءة، بحدائق، قرب المحيط، ومكتوب على بوابة كل فيلا أنها «ملكية خاصة»، وكان يتخيل كل ليلة أنه يملك فيلا من هذه الفيلات، ويسكن فيها وحده، ثم، في الليلة التالية، يسكن في الفيلا المجاورة، لأنه سئم من الأولى، وهكذا، وهكذا، حتى اختتم كل قصور الشاطئ. كان مستعدا لأن يصف لي بالتفصيل شكل ستائر الحمام، مثلا، أو روب النوم، أو الأقنعة المعلقة على الجدران، في كل فيلا «سكن فيها». الملكية الخاصة تحدد الخيال، عادة ما نتخيل أنفسنا نسكن في بيت ليس لنا أبدا، بيت أفخم مما نحلم به. وخيال بري أعظم من الحدود كلها، وحفظت هذه النقطة: لا بد من خيال واسع في عالم ضيق.

قال إنه «سيصير بليونيرا ذات يوم». «كيف؟»، «سأنزل نحو جامعة بيركلي، وأدرس علم النفس العيادي، وأفتح عيادة، سأكون أعظم طبيب للروح على سطح الأرض، وأصبح بليونيرا!، هل تعرف يا حسين؟ هناك من لا يوجد لديهم فكر، ويتسكعون في السوبر ماركتات بحثا عن أفكار، هذا تسوق ذهني! أنا عقلي من ذهب نقي، منجم من ذهب للروح جديد، ولا يتسوق أبدا، ذهب خالص يا رجل»

«وما هو ذهبه؟»

«الفهم مهما حدث معك، لن أتعب من تكرار كلمة واحدة لك: افهم، افهم، افهم!»

«وما هو الفهم؟»

«الفهم هو أن تفهم ما هو الفهم، وماذا بإمكانه أن يفعل»

«وبما أنني لا أفهم الآن ما هو الفهم ولا ماذا بإمكانه أن يفهم، فأنا بليد؟»

«نعم، نعم، أحب كيف يشتغل عقلك يا رجل!»، وضحك عاليا

«ولماذا عليّ أن أفهم؟»

«هناك لذة في تأمل عقد الناس. افهم، افهم، وميّز، ميّز، ميّز! خلاصة وصيتي لك: افهم وميز!». وتشرد، لم أعد أراه إلا لماما، كان الفصل ربيعا، وكنت بحاجة إلى كثير من النوم، والراحة، ورؤية المحيط والشمس، وأشبه «علي بابا» عندما انفتحت المغارة، بحاجة لرؤية الفضاء العادي. يا إلهي كم يصبح العادي طموحا، أحيانا، كنت أحلم بسماء عادية، بأن أنام فقط فوق عشب أخضر تحت الشمس، قرب المحيط، وأغفو، أو في فيء شجرة في ساحة الحرم الجامعي، أو بأن أراقب سنجابا رماديا يقفز من فيء إلى فيء، ويقف على قدميه الخلفيتين ويحدق فيّ.

سياتل جميلة في الربيع، زرقة مياه المحيطات، وقمة «جبل رينييه» المغطّى بالثلج، ولكن المكان خادع، فكرت مرة في المشي نحو «جبل رينييه»، معتقدا أنه يبعد مسيرة ساعة أو ساعتين على الأكثر، ومشيت ساعات والجبل يبدو في المكان نفسه، لا يبتعد ولا يقترب، أوقفت سائق دراجة نارية وسألته كم يبعد الجبل، ضحك وقال: «تحتاج ساعتين بالسيارة، ربما». تربيت في جبال قصيرة القامة، ولا فكرة عندي عن جبال مثل رينييه. بعد وصولي إلى سياتل، كنت محتارا من غيوم أميل إلى الأزرق والأسود، داكنة، ومعلقة في آخر الأفق، فوق، ولا تتحرك أبدا، ولأشهر وأنا أفكر في عدم حركتها، حتى قيل لي إنها ليست غيوما، بل قمم جبال!

والتقيت في ذات صباح بـ«دون»، بالصدفة المحضة. لم أكن قد رأيته منذ ليلة البيتزا مع بري. «أهلا، دون، كيف الحال؟»، ضحك بنعومة، وحرك لحيته الحمراء على صدره دائريا، وهو يهز يدي، ثم قال إنه «كان في السجن». «سجن؟ لماذا؟»، «جمعت كومة من قمامتي، علب كولا فارغة، ورق، عيدان يابسة، وبسطتها أمام مدخل سوبرماركت الـ«سيفويه»، «تلفنوا» للشرطة، واعتقلتني بتهمة تشويه جمال المكان!»، «ولماذا تبيع قمامة أمام مقر احتكار؟»، «لا أستطيع ترك الساحة للاحتكارات، أردت المنافسة!»، وضحكنا، واتجهنا نحو متحف آثار في الحرم الجامعي. «ما هي أخبار سوزان؟»، «مليحة، سوزان هي سوزان، قالت لي إنني أنا وبري نضعها على «منصة»، ونعبدها، كأمنا الأرض، وننسى أنها امرأة عادية بحاجة إلى صديق».

مررنا في المتحف على صخرة ملساء وصلبة جدا، ولا يستطيع خمسة مثلي ومثل دون زحزحتها من مكانها. قال: «تخيل، أحد محاربي الهنود الحمر حمل هذه الصخرة لعدة أميال، قبائل محاربة، من تدريبات إحدى القبائل أن يركض الشخص عشرات الأميال في الشمس، وفي فمه جرعة ماء، وعليه ألا يجرعها أو يقذفها من فمه، كتيبتان من الجيش الفيدرالي طاردتا لأشهر محاربين اثنين فقط من هؤلاء، وقبضوا عليهما أخيرا، عندي صورة لهما».



وتذكرت «لويس»، مشردا من الهنود الحمر يرسم وجوها هندية حمراء يبيعها بدولارين أو ثلاثة، تعرفت عليه في محل الألعاب الكهربائية، وفي اليوم الثاني ناديت عليه «لويس، لويس»، ولم يجب، غير اسمه إلى «جون»، ولا أية قوة في العالم تجعله يعترف بأنني أعرفه، أو بأن له أية صلة بلويس هذا، وفي اليوم الثالث غير اسمه إلى «جوني»، وأنكر أنني أعرفه أو أن له صلة بـ«جوني»، انتماء لويس أو جوني أو جون، لاسمه المتغير فقط.

تصعلكت مع «دون» زمنا، فأخذني إلى كل زقاق فيه «خربشات أطفال»، وإلى جناح طائرة مغروس في سقف بيت مدمر، لكي «أرى الفن» في الشوارع، وأثمن ما تعلمته من دون، أيامها، أن «أقرأ الخشب»، كان يحدق لساعات في أية طاولة خشب في مقهى، ويسرح في ملمس الخشب، حبيباته، وخطوطه، ويتمتم مذهولا: «لا أحد يرسم ما في خشبة!».

وفي ذات يوم ظهر بري، ضاحكا، أمام باب المخرج الأخير، وقال إنه تدبر أمره، ورجع إلى السكن في غرفته القديمة نفسها، ورجعنا إلى صداقتنا الأولى، مرت مدة متوترة جدا، ثم ضربتني الصاعقة في ليلة من أكثر الليالي حزنا في حياتي.

كنا في بيته، في الواحدة ليلا، ومعنا كان «جو»، وذلك المدمن على المخدرات الذي كان يرى «نساء عرايا» يمرقن أمامه في الليل في بيته، وكنت غارقا في حوار ما لا أذكر حتى موضوعه، مع «جو»، وبري كان قاعدا يدخن، ويصغي، كنت متوترا، منهكا، وكل شيء فيّ تزعزع، كل ما كنت أؤمن به اهتز، كل نقطة ضعف انتشرت مثل بقعة زيت فوق بركة ماء قلب مقمر، كنت على الحافة، باختصار، ذهنيا وفيزيائيا، فجأة، تدخل بري في النقاش وقال: «يا رجل، يا رجل»، فتوقفت مستغربا، وانتظرت ما سيقوله، قال «الأنا عندك أكبر من مدينة سياتل!»، فوجئت، لأن الموضوع لم يكن عني أو عن أي شيء، في الحقيقة، وتقمصتني نوبة من جنون، فمددت جسمي مثل جسر فوق الطاولة، وهززت إصبعي في وجهه قائلا: «أناي أكبر من نيويورك وأحبها، فاهم؟ لا تتجرأ على مقاطعتي مرة أخرى!». كنا عادة ما ننفجر، ولكن هذه المرة كانت في كلامي نبرة تهديد لا أثر فيها لأية صداقة، ولم أكن أتخيل أن هذه الحادثة البسيطة، في نظري، ستجلب انهيار صداقتنا كلها.

رمى نفسه على مسند كرسيه الخشبي ببطء، مصدوما، وبصمت، ولف لفافة تبغ، وتغيرت كل تعابير وجهه بطريقة لم أرها أبدا من قبل، وبدا لي وجهه أشبه بهذه اللوحة ذات الانفجار الأخضر الحاد، التي رأيتها في غرفة نومه، وجهه بدا مربعا صغيرا مقصوصا من صورة بالأبيض والأسود، ومنه تصعد موجات وكتل خضراء مجنونة، ويكاد يغيب في الفيض،



كانت الإضاءة صفراء، شبحية، والصمت شاملا، وأدركت أن شيئا انكسر بيننا لأول مرة، «بري، متأسف، يا رجل، فعلا متأسف».

لم يجب، واصل لف لفافة تبغ من نوع عثمان، وهو يحدق في رؤوس أصابعه، نهض «جو» وصاحبه، وخرجا، وبقينا وحدنا، مرت مدة خلتها أبدا، ثم نهض واقفا، وقال: «يا رجل، سأحجب عنك من الآن فصاعدا معرفتي!».

ومشى نحو جيتار قديم كان مسنودا على الحائط، مقابل باب المطبخ، وكنت نسيت حتى وجود هذا الجيتار، تناوله، وقعد على كرسي بعيد جدا عني، في آخر الطاولة، وانحنى فوق جيتاره وبدأ يعزف ارتجالا، نظرت إليه، في محاولة لسبر أغواره، فذكرتني كتلته المنحنية حول الجيتار بلوحة «عازف الجيتار»، لبيكاسو، وبكل «مرحلة بيكاسو الزرقاء» في الرسم.

لم أكن قد سمعته يرتجل موسيقى قبل ذلك أبدا، إلا مرة في حانة فندق الجامعة، حانة تحت الأرض، ينزل إليها درج قديم في زقاق ضيق، صدمني فيها دخان كثيف، ولعب بلياردو، وسكارى، وطالبات جامعة، وضجيج، جلس على البيانو، في الزاوية، ووجهه نحو الحائط، وبدأ يعزف، بعد دقيقة فقط، كانت الحانة كلها صامتة، من كان يشرب كأسا، وقفت الكأس في يده، وأصغى، ومن كان يثرثر، نظر نحو الزاوية وحملق في هذا المشرد، كان يدخن، ويضع لفافته فوق إصبع بيانو، وينفخ الدخان، ولا يرى أحدا، وكل جسمه يتحرك، ويهيج، مع اللحن، مع لحن فيه نفس هذا الهدير الساحر والمجنون الذي في بحر صوته، فيه الزبد القمري نفسه الذي يبزغ من وسط موج أسود غامق، نفس الحزن فوق الإنساني في لوحته الخضراء، نفس هذه الأغوار التي شعرت دائما، بسببها، أنني، مهما عرفته، لا أعرف عنه شيئا، وظل وجهي شاطئا بالنسبة إليه، وهذه كانت أول مرة عرفت فيها أنه موسيقار، والآن، كان يرتجل على الجيتار ويغني:

«إلهي، أنت قدير على كل شيء، وذلك يعني أنني عاجز ليس يقدر يفعل شيئا،
إلهي، أنت عليم بذات الصدور، وذلك يعني أنني لست أعلم شيئا».

كنت أصغي فقط، وأهوي، أهوي، مثل ريشة نسر تسقط في عتم وريح ومطر في قرارة قلب لا قرار له، نظرت إليه فوجدته يبكي، ومخاطه يسيل من أنفه، وأخيرا نهض، ومسح دمعه بكم معطفه المارينز، ومخاطه، ولم أستطع أن أصبر أكثر، نهضت وقلت: «بري، يا رجل، يبدو أن وقت الوداع جاء»، هز رأسه، ومرت دقائق صمت، وفهمت أن عليّ أن أخرج، قلت بحزن «بري، تحملني، لدي سؤال أخير: يوما ما قد أكتب عما حدث، أتسمح لي بذلك؟ إن لم تسمح، وهذا حقك، أقسم لك بالله، لن ألفظ لفظة واحدة لأي مخلوق على سطح الأرض عنك، ولا عني معك».

قال: «يا رجل، انس بري، انسه أنت أيضا، من الخير لك ولي ألا تكتب شيئا، ولكن إن شئت أن تكتب، فهذا شأنك وحدك». ومد يده للوداع، ومددت يدي.

كنت مختنقا بشكل لم أعرفه من قبل، وخرجت، نزلت الدرج الخشبي إلى الشارع، ونظرت خلفي، كان قد أغلق باب الزجاج، ولم أر خلفي شيئا، كان وكأن يدا من الغيب قبضت على حنجرتي بأصابع من حديد ودمع، لم أستطع النوم ليلتها، وقررت أن أنتظره في «المخرج الأخير»، حيث يأتي ليشرب قهوته في الصباح، كالعادة، ولكنني غفوت دون أن أدري، قبل الصبح بقليل، واستيقظت برعب، كانت الشمس قد طلعت خلف الجدار الزجاجي، فركضت إلى المقهى، كان مفتوحا، ودخلت، لا أحد هناك، جلست بقرب جداره الزجاجي أحدق في الشمس والعشب وأنتظر، أتت نادلة بمريولها الأبيض، وشفتين أقرب لمعجون من البلاستيك، ومسحت الطاولة، ثم وقفت بدل أن تذهب، قائلة، بعد تردد: «اسمح لي يا مستر، هل تدعى حسين؟». «نعم». «صديق لك يدعى بري جاء هنا، وقال إنه يتمنى لك السلامة، ترك سياتل». «تركها؟ متى؟». «قبل ساعة». «كيف شكله؟». «معه عصا برية، وجيتار قديم». شعرت بغصة، وبالكاد كان لدي صوت: «أين ذهب؟». «لكاليفورنيا، سانتا مونيكا، ولن يعود».

خرجت في أتعس شعور مر بي في حياتي، لم أر بري أبدا بعدها، لم أره أبدا، شعرت بفراغ كوني، بضيق في المكان، بأن كل مكان هنا مصيدة، حاولت كل شيء لكي أنسى، ولكن عبثا، وجهه كان يطل من كل شارع، وزقاق، ومكان، ومشيت على غير هدى، وذهني يقفز من ذكرى معه إلى أخرى.

مرة، مثلا، في ثمانينيات القرن الماضي، كنت أدرس مادة عن الفلسفة مع ذلك البروفيسور الأميركي الذي كان مذهولا بشوارع رام الله الخالية، ليلا، والمضاءة بمصابيح صفراء، وكنت مهتما بمسألة الجنون، لا أذكر ما الذي حدث، لكن وجدتني غارقا معه في مناقشة عن العهد القديم، يقول الرب لموسى أن يذهب إلى مصر ليخرج بني إسرائيل من هناك، فيسأله موسى: وماذا أقول لهم، إن سألوني من بعثني إليهم؟، فيرد الرب: قل لهم «أنا من أنا» بعثني إليكم، وتعني الجملة في العبرية: أنا كنت من كنت، وأنا من أنا، وسأكون من سأكون، نظر البروفيسور إليّ من فوق إطار نظارته البيضاء الصغيرة جدا، والمعلقة فوق أنفه، قائلا: «حسين! ماذا يعني لك جواب الرب هذا؟»، قلت: «لنفترض أن الرب زنبقة، وأنا لا أعرف شيئا عن الزنبق كله، فسألتها من هي، ستجيب: أنا كنت زنبقة، وأنا الآن زنبقة، وسأكون في الزمن الآتي زنبقة!، لن أفهم شيئا من هذا الجواب سوى أنها زنبقة أبدية، وأنا لا أعرف شيئا عن أية زنبقة ولا عن معنى هذا كله»، هز البروفيسور رأسه.

الجنون عندي كان كالرب، زنبقة من هذا النوع، أعرف أنها موجودة، وكانت ما كانت، وهي ما هي، وستكون ما ستكون، كنت أجهل أي شيء عنها ما عدا «وجودها».

والآن خطر في بالي أنني سألت بري السؤال نفسه: «بري، ما هو الأنا من أنا؟».

قال: «واو يا رجل واو! هذا هو الضوء الأزرق».